مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة التاسعة والعشرون . العدد ٣١٧ . المحرم ١٤٣٥ هـ . نوفمبر ٢٠١٣ م

تطور فكرة
تقسيم المشرق العربي

العدو الذي لم نحذره

مكاسب إقليمية محتملة
بين ثنايا «الغَزَل الإيراني»

ما وراء التوجه الصهيوني لفرض
السيادة على «الأقصى»؟

النصرة بالضعفاء

9 771658 646803

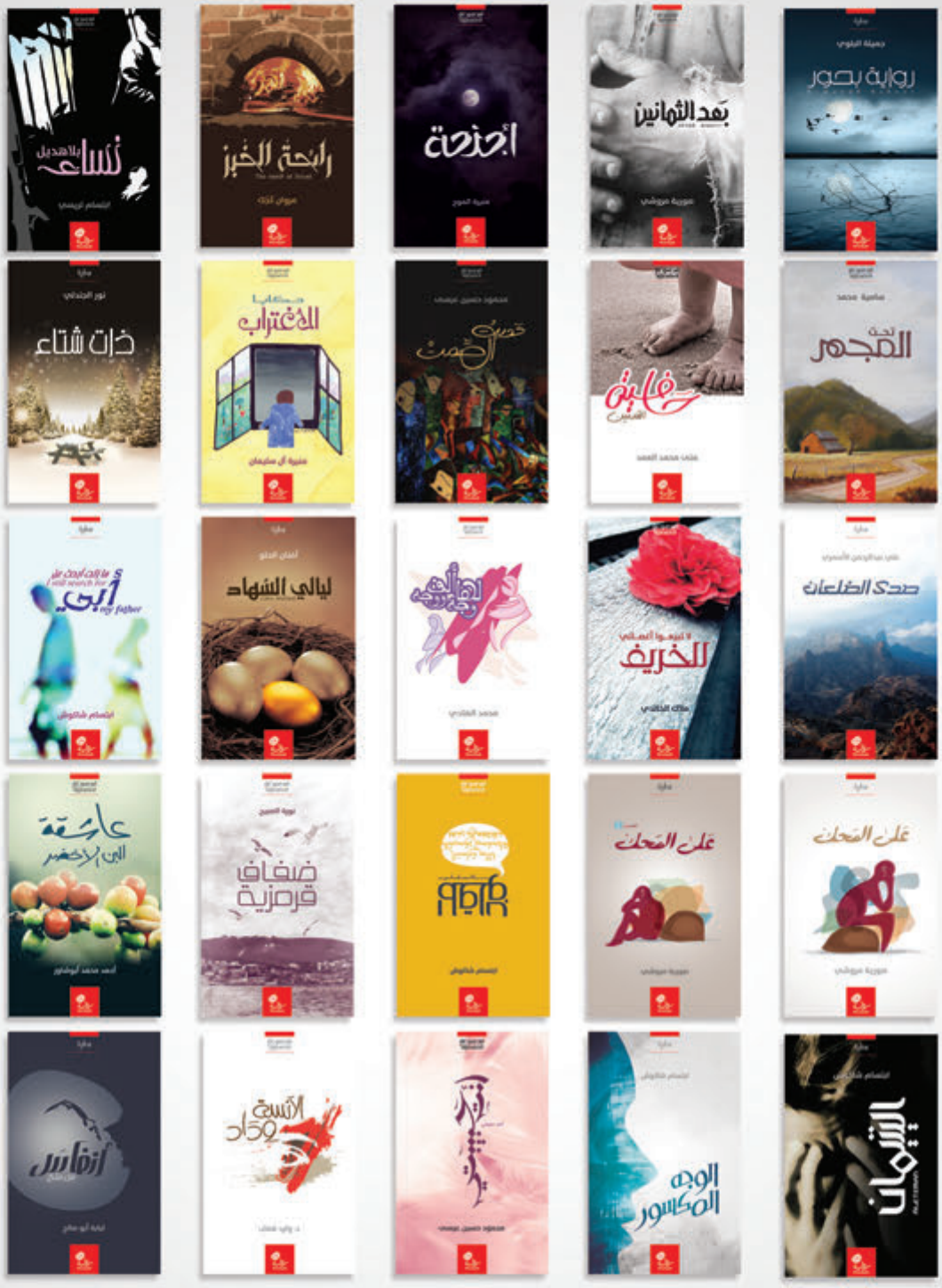

مؤسسة دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

رواية
Rewayah

دار رواية ..
حيث المتعة والفائدة ونقاء الكلمة

بين قلبين
بائعة الكليجا
أمي جات
المهمة المستحيلة
المطاردة الرهيبة
وماتت خوفي
لأنها أنثى
صفعات
ستارة النافذة
الفيروس القاتل
جنازة الملائكة
ثائر في وجه الريح
منزل ١٠٥
مقبرة الرعب
رحلة الأهوال
الحب
الفارسة والملك
الحب الأول
ربما.. حب أول
رماد .. عادت به سارة
المحطة 40 Station
الفنان
ابحث عن دفء
أحلام مؤجلة
32 يوم

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
د. فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام بن سعد داود

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي
صلاح الدين عبده الحجري

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

YouTube | f | t

اشتراكات البيان Whatsapp & SMS
٠٠٩٦٦٥٥٤١٩٢٤١٣

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ ـ ٤٥٥٧٨١١ ـ ٤٥٥٧٨١٢ ـ فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ ـ فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

الافتتاحية

٦ العدو الذي لم نحذره
التحرير

العقيدة والشريعة

١٠ التشيُّع الصفوي
أ. د. ناصر القفاري

١٤ دحض حجية التشيع
د. الشفيع الماحي أحمد

السياسة الشرعية

٢٠ قراءة في مفهوم الأقلية بالقرآن الكريم
أنور بن قاسم الخضري

قضايا دعوية

٢٦ النصرة بالضعفاء سهم لا ينسى ووعد لا يخيب
أحمد عبد المجيد مكي

٣٠ فنُّ الأسئلة لدى الصحابة
لافي بن حمود الصاعدي

قضايا تربوية

٣٢ لا يستحيون من الإجهار ونستحي من الإنكار
خالد سعيد آل سالم

٣٨ اقتران الخوف والجوع في القرآن
د. توفيق علي زبادي

نص شعري

٤٠ انتفاضة
فهد بن علي العبودي

المسلمون والعالم

٤٢ تطور فكرة تقسيم المشرق العربي
د. بشير زين العابدين

٥٠ ما وراء التوجه الصهيوني لفرض السيادة اليهودية على المسجد الأقصى؟
د. صالح النعامي

٥٤ مكاسب إقليمية محتملة بين ثنايا «الغَزَل الإيراني»
محمد سليمان الزواوي

٥٨ روحاني ومعاناة أهل السنة في إيران
صباح الموسوي

٦٠ الحراك الجنوبي وحركة الحوثي.. تقارب المصالح وتباعد الأيديولوجيات
أحمد الصباحي

٦٤ حصار غزة يدخل عامه السادس
أحمد أبو دقة

٦٨ مرصد الأحداث
عمرو عبد البديع

قصة قصيرة

٧٣ التمساح والبحيرة
حسين راتب أبو نبعة

عين على العدو

٧٤ النفق في غزة يقض مضاجع الصهاينة
د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٧٦ فقه التعامل مع الفتن
د. أنور أبو زيد

فكرية

٨٨ معركة الشريعة وحق استرداد الهوية
د. أمين الدميري

الباب المفتوح

٩٠ تأملات في آية التوثيق
محمد مسعد ياقوت

الورقة الأخيرة

٩٤ معالم في النبوات عند ابن تيمية
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

[كلمة صغيرة]

الإصلاح بين المؤمنين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.. وبعد:

من السهل جداً أن تجد من يتحدث عن المرتبة الشريفة النبيلة، مرتبة (الإصلاح بين المؤمنين)، فيتحدث عن ضرورة الاجتهاد في التقريب بين المختلفين، وإزالة أسباب الشحناء والتباعد، وقطع منافذ الشيطان في إفساد النفوس، ويورد النصوص الشرعية والأقوال السلفية في أهمية هذا الصلح ومجالاته.

غير أن هذه الدرجة الفاضلة لا ينالها إلا القلة من الناس؛ فالحديث عن أهمية الصلح، والاقتناع بضرورته، لا يجعل الشخص قادراً على تحقيق هذه الرتبة، فهي تتطلب صفات ومقومات كثيرة قبل أن يكون الشخص مؤهلاً للقيام بهذا الواجب الشرعي العظيم، فالمصلح رجل عاقل صادق ناصح، يمد جسور التواصل مع جميع إخوانه، ويُحسِن معرفة أسباب الاختلاف وكيفية إزالتها، ويصبر على الأذى، ويقدّم مصلحة الجماعة على مصلحته الشخصية، ويتسامى عن التعصب لأي جماعة أو حزب أو رأي، ويتفهم دوافع الناس ويقدّر اجتهاداتهم، وفيه من الرفق واللين وسلامة الصدر وحُسن المقصد ما يكسب به ثقة الأطراف المتنازعة، فيجمع الله على يده القلوب المتنافرة، ويكفّ الله بفضل فعله شروراً جسيمة.

المجامع الإسلامية كلها بحاجة إلى أمثال هؤلاء العقلاء، فوجودهم من أهم عوامل بقاء الأُلفة والترابط، وحركتهم هي من أكبر ضمانات تحقيق الهدف المبتغى من أي مشروع، وحين يغيب أمثال هؤلاء العقلاء عن أي ساحة دعوية أو علمية أو جهادية أو تربوية، فإن هذا مؤذن بسحابة فسادٍ لا يعلم إلا الله ما ينجرّ على العمل الإسلامي بعد ذهابها.

حريٌّ بنا أن نبحث عنهم في كل مجال، فنسند ظهورهم ليقوموا بواجبهم.. وحريٌّ بهم أن يبادروا بالإصلاح قبل أن يستلم الراية مَنْ لا تزيد الأمور معه إلا افتراقاً واحتراباً.

العدو الذي لم نحذره

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فإن من يتأمل حديث القرآن الكثير والكثيف عن النفاق والمنافقين، يدرك أنه يتناول خطراً ماحقاً وضرراً مفجعاً استحق أمر التحذير منه والتوجيه إلى مواجهته استغراق صفات النفاق آيات كثيرة، حيث كان الحديث عنهم في القرآن في ١٧ سورة مدنية من ٣٠ سورة، واستغرق ذلك قرابة ٣٤٠ آية، حتى قال ابن القيم – رحمه الله –: (كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم)[1].

(١) مدارك السالكين لابن القيم ١/٣٤٧.

أصل النفاق يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية، وقد فصّل القرآن حديثه عن المنافقين لأنهم ازدادوا عن بقية أنواع الكفار بالكذب والمراوغة والخداع، فجاء هذا التفصيل حتى يمكن تجنب الخداع والتضليل الذي طالما ظنوا أنهم به يخادعون الله والذين آمنوا ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

وقد ركّز القرآن على إظهار صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، والاعتقاد بصلاحهم، وهم فجرة وفسدة في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبّار أن يظن بأهل الفجور خير، أو ينتظر من أهل الفساد إصلاح.

إن عداء المنافقين قد يظهر في صورة عداوة لبعض المسلمين، لكنه في حقيقته عداء لله ولرسوله ولكتابه.. إن عداءهم يرجع للإسلام ذاته، قال ابن القيم: «فلله كم من

معقل للإسلام قد هدموه، وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه، وكم من عَلَم له قد طمسوه، وكم ضربوا بمعاول الشّبه في أصول غراسه ليقلعوها، فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سريّة بعد سريّة، يزعمون أنهم بذلك مصلحون، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]»[1].

تنوَّعت صور النفاق عبر التاريخ، فكانت في بعض الأحيان تخرج في شكل فرق منحرفة ونحل ضالة ترتدي ثياب الدين وهي مارقة منه، أو لا تظهر انحرافاً في العقيدة لكن تفضحها مواقفها من الشريعة، أما في عصرنا فإن شأن النفاق عجيب، فقد بلغ من الجرأة والوقاحة أن خلع رداء الدين بكل خسة وبجاحة، وذلك عندما رفع المنافقون في عصرنا شعارات العلمانية الداعية إلى فصل الدين عن الدنيا بالمرة، وكأن الناس بعد هذه الدنيا سيصيرون إلى عدم!.. لا سؤال ولا حساب.. لا ثواب ولا عقاب!

من تعرَّف على العلمانية في بلاد المسلمين - فكراً ومنهجاً - ثم تأمل حديث القرآن عن النفاق والمنافقين - سلوكاً وتطبيقاً -؛ يجد تطابقاً عجيباً، وكأن الكتاب المبين يتحدث مباشرة عن أصناف العلمانيين، فالعلمانية في عصرنا - بكل صنوفها وتياراتها الغربية والشرقية - تمثل التحقيق النظري والتطبيق العملي للنفاق بدرجاته كلها، فالعتاة من رموزها ومفكريها، والطغاة من قادتها ومتآمريها؛ يجسّدون النفاق الأكبر بكل ما يحمل من ملامح، ثم هؤلاء ينشطون بكل ما يستطيعون لتكوين كتل عظيمة من أصحاب النفاق الأصغر؛ ليكونوا أنصاراً لهم، وجدراناً من الخشب المسندة التي تقف خلفهم، فأكبر هموم المنافقين العلمانيين أن يكون النفاق الأصغر بكل شُعبه السمةَ الغالبة للشعوب المسلمة، حيث يدأبون لإخراج الناس بنفاقهم من النور إلى الظلمات، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

إن مصيبة المسلمين في أكابر المنافقين من العلمانيين وغيرهم، تعظم على كل مصيبة؛ فهم وراء كل بلاء، إما أصالة أو شراكة، ومن تأمّل أحوال الأمة طوال تاريخها يجد آثار الدمار الذي ألحقوه بأمتنا في العقائد والشرائع والأخلاق، وفي الأرض والعرض، وفي كل شؤون المجتمع والفرد.. «بلية المسلم بهم أعظم من بليته بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلا هم، لكن لم يرد ها هنا لحصر العداوة فيهم وأنه لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يُتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها؛ فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم وهم في الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيام ثم تنقضي ويعقبها النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر»[2].

رأينا ذلك في عصرنا وسمعنا عنه قبل عصرنا، فمنذ أن افتتح (ابن سلول) طريق النفاق، سارت فيه من بعده أفواج المنافقين عبر التاريخ، وفي عصرنا الراهن لا تخطئ العين ملامح النفاق الظاهر المتظاهر مع الكافرين في القضايا الكبرى التي تخصّ المسلمين؛ رأينا ذلك في تركيا قبل سقوط الخلافة وبعد سقوطها منذ أكثر من ٩٠ عاماً، ورأيناه في فلسطين بعد احتلالها منذ ما يزيد على ٦٥ عاماً، كما لا نزال نرى صوراً من ذلك في أكثر بلدان المسلمين التي سلخها المنافقون لحساب الكافرين عن هويتها الإسلامية وبنيتها الاعتقادية.

وبين حين وآخر نفجع بأحداث يكون للمنافقين الدور الأبرز في إدارة مآسيها، كما حدث ولا يزال يحدث في أفغانستان وفلسطين والعراق والبوسنة وباكستان والشيشان والصومال، وغيرها من البلدان التي يتهيَّأ المنافقون فيها كل مرة لجولة جديدة من قهر الأمة وإذلالها أمام أعدائها بمسوّغات متعددة، لا يقف خلفها شيء من المبادئ والثوابت إلا الثبات أو الوصول إلى مقاعد السيادة وكراسي القيادة لممارسة الإفساد في الأرض، ولذلك يهون عندهم في سبيل الكراسي كل شيء، ويحل لأجل الوصول إليها كل شيء، ويحرم دون المساس بها أي شيء!

(١) مدارك السالكين لابن القيم ١/ ٣٤٧.

(٢) طريق الهجرتين ٤٠٤.

وفي ظل غياب الشـــريعة عن الحكم في الغالب الأعم من أوطان الإسلام، وفي ظل ضياع الضوابط التي يُختبر بها من يَصْلُح ومن لا يَصْلُح لقيادة المســلمين؛ خلا الجو لكل طاغية أفَّاك من أهل النفاق لأن يركب شعباً من الشعوب بعد الوثوب إلى ســدَّة الحكم، عبر طرق ومسالك وعرة، يعرف المنافقون وحدهم كيف يذلّلونها ويسبرون غورها ويعبرون من فوقها إلى القمة التي لا يسقطهم من فوقها إلا هازم اللذات.

يقوم المنافقون في كل مرة ينجحون فيها في ركوب شعب من الشـــعوب، بدور عدائي مزدوج يســتهدف أمرين لا ثالث لهما: اســتمداد أســباب البقاء على القمة من ظهير خارجي مقابــل إمداد ذلك الظهير بأســباب اســتبقاء المصالح في الداخــل الوطني، وما عدا ذلك كله تفاصيل؛ فكيفية الحكم.. ودســتور التحاكم.. وتمثيل الفئات.. والنيابة عن الشــعب.. والمعارضة باســم الشعب.. والخطط الخمســية.. والمشاريع التنمويــة.. والصراعــات الحزبيــة.. والمعــارك الجانبية.. وخارجيــة أو داخليــة؛ قصة واحدة، والمحصلــة في النهاية واحــدة، وهي دعواهم العريضة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

خطأ التقدير لخطر التحذير:

عندما حذر القرآن مــن خطر النفاق في قول الله تعالى عــن المنافقين: ﴿هُمُ الْعَــدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقــون: ٤]، يبدو أن المســلمين المعاصرين لم يأخذوا هــذا التحذير على المحمل الواجب، ولم يقدّروا الأمر حق قدره، فاستهانوا بخطر النفاق، وقعدوا عن جهاد المنافقين الذين قال الله عنهم وعن أوليائهم من الكفار الظاهرين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِــمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْــسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبــة: ٧٣].. لم يجاهد المســلمون هؤلاء في الله حق جهاده، بالحجة واللسان، فضلاً عمن يستوجب منهم السيف والسنان، وقد كان من نتائج سوء التقدير أن ســاءت إدارة المعركة معهــم، لدرجة أن كثيراً من الإسلاميين أنفسهم اســتهانوا بخطر المنافقين، حتى وضعوا الثقة بزعمائهم، إلى أن وقعوا فرائس لخداعهم، وقد كشفت الأحداث التي أعقبــت الثورات العربية – وبخاصة في مصر – أن المنافقــين العلمانيــين قد نجحوا فــي صناعة «قواعد شــعبية» من العلمانيين العوام، الذيــن ربما لا يعرفون معنى العلمانية، لكنهم في أفعالهــم وأقوالهم ومواقفهم وأخلاقهم يمثلون تصويراً مطابقاً لأحــوال المنافقين وصفاتهم، فالكثير منهم يجمعون أو يســتكثرون من شــعب النفاق الأصغر حتى عــمَّ ذلك فيهم وطمَّ بفعل اتســاع تأثير التشــكيل العلماني النفاقــي والنفعي للمفاهيم والأفكار؛ فصفات الكذب، وخلف الوعد، والرياء، والخيانة، والجبن، وترك الجهاد مع السخرية من المجاهدين، والشــح بالعطاء مع التهكم على الأســخياء، والشماتة في المسلمين والفرح بما يحل بأرواحهم وأعراضهم وأموالهم من جوائح ونكبــات، مع محبة أعداء الدين وكراهة المتديّنين، والهزء بالشــعائر والاســتهانة بالشــرائع، والفرح بانتصار المفسدين، والمساءة بارتفاع شأن الصالحين؛ كل ذلك صار يمثل ظواهر مرضية عامة في قطاعات لا يســتهان بها من الشعوب التي صارت أجزاء غير قليلة منها تخرج للتشاجر أو التظاهر ضد الإسلاميين وضد شعاراتهم ومشروعاتهم!

إن الأمر يحتــاج صراحة لإعادة تقــويم تقديرنا لخطر النفــاق الذي تعبّــر العلمانية عنه أوضح تعبيــر، وذلك في ضوء نصوص الوحي ودروس التاريخ؛ لإعادة الوعي ونشــره بالتكييف الشرعي لتلك العلمانية وللمواقف الواجبة تجاهها، ولاستعادة التخطيط الواقعي لمواجهة خطرها الذي دهمنا في عقر ديارنا بما لم يكن في حســباننا، فعقر من شعوبنا فئاماً وأقوامــاً ما كنا نظن أنهم على هذا القــدر من خفة العقول وســفه الأحلام وســوء الأخلاق التي اكتســبوها من منافذ الإعــلام والتعليم التي غفلنا كثيراً عن وصفها بما تســتحق، والتعامل معها بما يجب.

هل قصَّر الإســلاميون، ومن ثم سائر المسلمين؛ في أخذ الحذر ممن قال الله عنهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾؟.. هل بذلوا وســعهم في التعريف بالعلمانية وخطرها وخططها ورموزها ومشــاريعها وروافد إمدادها ومنافذ انتشارها وكيفية نفوذها إلى أجيال جديدة من الدهماء والعامة؟

قد نكون قد تفاجأنا بــأن العلمانيين لم يعودوا في بلاد المســلمين مقتصرين على بضع عشــرات أو حتى مئات من النخب الفاســدة التي ينبغي تطهير كل مجتمع مســلم منها، لكنهــم صاروا قطاعات من الشــعوب التــي أصبحت فعلاً منقســمة إلى (علمانيين) و(إســلاميين)!.. هــل جاء ذلك مصادفة أو من دون جهد منهم في ذلك التغيير؟.. سؤال كبير يحتاج منا إلى كثير من التفكير!

أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية

مجلة البيان

والعديد من الخدمات المميزة | اتجاه القبلة | أوقات الصلاة | تقويم: هجري/ميلادي | واجهه خدمية مميزة

Al-Bayan Digital Calendar

App Store

www.albayan.co.uk

التشيُّع الصفوي

أ. د. ناصر القفاري(*)
@prof_alqefari

شاع في الإعلام وعلى ألسنة المثقفين المهتمين بشأن الفرق والمذاهب، مصطلح «التشيع الصفوي»، وكثير من الناس يجهلون حقيقة «التشيع الصفوي» الذي ترجع أصوله إلى السبئية الأولى، فقد خرج من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه طائفتان غاليتان، الأولى: الخوارج الذين كفّروا عليّاً رضي الله عنه، بل أجمعوا بكافة فرقهم على كفره، كما يقول الإمام الأشعري في «مقالاته»(١)، وقد حاربهم علي رضي الله عنه لما اعتدوا وقتلوا؛ والأخرى: الغلاة الذين غلَوا في علي رضي الله عنه، فمنهم من جعله إلهاً، وهؤلاء بيَّن علي رضي الله عنه لهم الحق واستتابهم، ومن أصر منهم على غلوه أحرقه بالنار، ومنهم من فضَّله على الخليفتين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما –، وهؤلاء

(*) أستاذ الدراسات العليا، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.
(١) «مقالات الإسلاميين» (١/٨٦).

توعّدهم علي رضي الله عنه بقوله: «لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربتــه حد المفتري»[1]، وقد تواتر عنه أنه كان يقول علــى منبر الكوفة: «خير هذه الأمة بعد نبيهــا أبو بكر ثم عمر»، وروي هذا عنه من ثمانين وجهاً[2]، ثم إن هؤلاء الغلاة بعد الضربة العلوية اســتتروا ولاذوا في سراديب العمل الطائفي السري.

غيــر أن هــؤلاء بعد مقتل الحســين رضــي الله عنه، وتأثّر عموم المســلمين بمقتله؛ اندســوا في عموم المناصرين للحسين والمتشيعين له والمنتسبين إليه، ولذلك ذهب بعض الباحثين إلى أن مقتل الحســين هو البذرة والبداية التاريخية لنشــأة التشــيع كعقيدة، ثم إنه في سنة ١٢١-١٢٢هـ ظهرت حقيقتهم، وانكشفت طويتهم، وذلك بعد رفضهم وتركهم زيد بن علي بعد ترضيه على أبي بكر وعمــر - رضي الله عنهما -، ولذا ســماهم زيد «الرافضة»، وكانوا يســمون «السبئية»، ثم لقبوا بـ «الصفوية»، ولقبوا أنفســهم في عصرنا بـ «الشــيعة»، وكفَّروا جميع المســلمين حتى المعتدلين منهم؛ كالزيدية، وبدأوا يظهرون في كل بلد من بلدان المســلمين باســم لهم لإخفاء حقيقتهم، ولذا قال الشهرستاني بـ «أن لهم دعوة في كل زمان، ومقالة جديدة بكل لسان»[3]، والعلماء يفرقــون بينهم وبين عموم الشــيعة، ولذلك قال الإمام الذهبي: «فالشيعي الغالي في زمان السلف وعرفهم هو مــن تكلم في عثمان، والزبير، وطلحة، ومعاوية، وطائفة ممن حارب عليّاً رضي الله عنه وتعرض لسبهم، والغالي في زمننا وعُرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين، فهذا ضال مفتر»[4].

ثم إن هؤلاء الغلاة اعتمدوا على مصادر لهم في التلقي انعزلوا بها عن أمة الإســلام، وكانت هذه المصادر ســرية التــداول بينهــم، ولعل أول ظهور لها أو وقــوف عليها كان في القرن العاشــر، فقد رأيت أن أول إشارة لها جاءت من أحــد الباحثين الإيرانيين في القرن العاشــر، وهو مخدوم الشــيرازي[5]، حيث ذكر أن من هفوات الروافض إنكارهم كتب الأحاديث الصحاح التي تلقتها الأمة بالقبول، وإيمانهم بمقابل ذلك بأربعة كتــب، جمع فيها كثير من الأكاذيب مع بعض الأحاديث وأقوال الأئمة[6].

أما انتسابهم أو نسبتهم لـ «التشيع الصفوي»، فهو نسبة إلى الدولة الصفوية في إيران التي كانت من بلاد السنة حتى بليت بالحكم الصفوي الذي استمر من سنة ١٩٠٥إلى سنة ١١٤٨هـ[7]، والتي أسسها الشاه إسماعيل الصفوي وفرض التشيع «الاثنا عشري» على الإيرانيين قسراً، وجعله المذهب الرسمي لإيران، وكان إسماعيل قاسياً متعطشاً للدماء إلى حد لا يكاد يصدق[8]، ويشــيع عن نفسه أنه معصوم وليس بينه وبين المهدي فاصل، وأنه لا يتحرك إلا بمقتضى أوامر الأئمة الاثني عشر[9].

ولقد تقلد ســيفه وأعمله في أهل الســنة، وكان يتخذ سب الخلفاء الثلاثة وسيلة لامتحان الإيرانيين، فمن يسمع الســب منهم يجب عليه أن يهتف قائلاً: «بيش باد كم باد»، هذه العبارة تعني في اللغة الأذربيجانية أن الســامع يوافق على الســب ويطلب المزيد منه، أما إذا امتنع الســامع عن النطــق بهذه العبــارة قطعت رقبته حالاً، وقد أمر الشــاه أن يُعلن السب في الشــوارع والأسواق وعلى المنابر، منذراً المعانديــن بقطع رقابهم[10]، وكان إذا فتح مدينة أرغم أهلها على اعتناق الرفض فوراً بقوة السلاح.

ويروى عنه أنــه عندما فتح تبريز في بداية أمره وأراد فرض التشــيع على أهلها بالقوة، أشار عليه بعض شيوخهم بأن يتريث؛ لأن ثلثي ســكان المدينة من أهل السنة، وأنهم لا يصبرون على سب الخلفاء الثلاثة على المنابر، لكنه أجابهم: «إذا وجدت من الناس كلمة اعتراض شــهرت سيفي بعون الله فلا أبقي منهم أحداً حياً»[11].

---

(١) «منهاج السنة» (١/ ٢١٩-٢٢٠).

(٢) وانظر من الروايات في هذا المعنى: «صحيح البخاري» (مع فتح الباري) (٧/ ٢٠)، مسند الإمام أحمد (بتحقيق أحمد شاكر) رقم ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٧١، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ١٠٥٤ (٢/ ١٤٨، ١٤٩، ١٦١، ١٦٤، ٢٣٣).

(٣) «الملل والنحل» (١/ ١٩٢).

(٤) «ميزان الاعتدال» (١/ ٥-٦).

(٥) وقد عاش في وسط الرافضة، واضطر أن يتلقى تعليمه بينهم، فعرف من أمورهم - كما يقول - ما يخفى على الكثير، ولزمته مخالطتهم ومطالعة كتبهم، وقد اطلع بسبب ذلك على كثير من ضلالاتهم وأباطيلهم.
(انظر: «النواقض» الورقة ٨٧، ١٥١ مخطوط).

(٦) «النواقض» (ص ١٠٩، ١١٠) مخطوط.

(٧) «الشيعة في الميزان» مغنية (ص ١٨٢).

(٨) «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» علي الوردي (ص ٥٦).

(٩) «الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري» كامل مصطفى الشيبي (ص ٤١٣).

(١٠) «المصدر السابق» (ص ٥٨).

(١١) «الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري» (ص ٥٨)، وانظر: «تاريخ الصفويين» (ص ٥٥).

ومن ناحية أخرى، اتخذ مسألة قتل الحسين وسيلة للتأثير النفسي، إضافة إلى أسلوب التهديد والإرهاب، فأمر بتنظيم الاحتفال بذكر مقتل الحسين على النحو الذي يتّبع الآن عندهم[١]، وأضاف إليه فيما يقال مجالس التعزية، وهي التي يسمونها الآن «الشبيه»، ويجرى فيها تمثيل مقتل الحسين، فكان لهذا أثره على أولئك الأعاجم حتى رأى بعضهم أنه من أهل العوامل في نشر التشيع في إيران؛ لأن ما فيه من مظاهر الحزن والبكاء وما يصاحبه من كثرة الأعلام ودق الطبول وغيرهما؛ يؤدي إلى تغلغل العقيدة في أعماق النفس والضرب على أوتارها الكامنة[٢].

ولقد آزر شيوخ الروافض سلاطين الصفويين في الأخذ بالتشيع إلى مراحل من الغلو وفرض ذلك على مسلمي إيران بقوة الحديد والنار.

وكان من أبرز هؤلاء الشيوخ شيخهم علي الكركي[٣]، الذي يلقبه الشيعة بالمحقق الثاني، والذي قربه الشاه طهماسب، ابن الشاه إسماعيل، وجعله الآمر المطاع في الدولة، فاستحدث هذا الكركي بدعاً جديدة في التشيع، فكان منها: التربة التي يسجد عليها الشيعة الآن في صلواتهم، وقد ألف فيها رسالة سنة (٩٣٣هـ)[٤]، كما ألف رسالة في تجويز السجود للعبد[٥]، وذلك مسايرة للسلطان إسماعيل الصفوي الذي كان يغلو فيه أصحابه حتى إنهم يعبدونه ويسجدون له، ولذا قال الحيدري بأن إسماعيل خرج عن جادة الرفض، وادَّعى الربوبية، وكان يسجد له عسكره[٦].

وكانت بدعه الكثيرة في المذهب الشيعي داعية للمصنفين من غير الشيعة إلى تلقيبه بمخترع الشيعة[٧]، وقد ألف رسالة في لعن الشيخين - رضي الله عنهما - سماها «نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت»[٨]، ويقال: إنه هو الذي شرع السب في المساجد أيام الجمع[٩].

(١) «الفكر الشيعي» (ص ٤١٥).
(٢) «لمحات اجتماعية» (ص ٥٩).
(٣) علي بن هلال الكركي، هلك سنة (٩٤٨هـ).
(٤) «الفكر الشيعي» (ص ٤١٦) عن ترجمته في «روضات الجنات» (ص ٤٠٤).
(٥) «لمحات اجتماعية» (ص ٦٣).
(٦) «عنوان المجد» (ص ١١٦-١١٧).
(٧) «النواقض» الورقة ٩٨ب.
(٨) «الفكر الشيعي» (ص ٤١٦).
(٩) «الفكر الشيعي» (ص ٤١٦).

كذلك كان من شيوخ الدولة الصفوية المجلسي، والذي شارك السلطة في التأثير على المسلمين في إيران حتى يقال بأن كتابه «حق اليقين» كان سبباً في تشيع سبعين ألف سني من الإيرانيين[١٠]، والأقرب أن هذا من مبالغات الشيعة، فإن الرفض في إيران لم يجد مكانه إلا بالقوة والإرهاب، لا بالفكر والإقناع.

ثم نشأ الجيل اللاحق في جو المآتم الحسينية السنوية التي طورها الصفويون ليمتلئ الناشئ بتأثيرها حقداً وغيظاً حتى لا يكاد يستمع بسبب ذلك إلى حجة أو برهان، وكان لكتاب المجلسي «بحار الأنوار» أثره في إشاعة الغلو بين الشيعة، حيث جاء قراء التعزية وخطباء المنابر فصاروا يأخذون منه ما يروق لهم، ويملؤون أذهان العامة بالغلو والخرافة.

وقد كان هذا الكتاب من أوائل المؤلفات التي طبعت على نطاق واسع في العهد القاجاري، وقد وردت منه إلى العراق نسخ كثيرة، ما أدى إلى انتشار معلوماته الغثة في أوساط الشعب العراقي على منوال ما حدث في إيران[١١].

كذلك لا ينسى الجانب الآخر من آثار الدولة الصفوية، وذلك في حروبها لدولة الخلافة الإسلامية، وتعاونها مع الأعداء من البرتغال ثم الإنجليز ضد المسلمين، وتشجيعها بناء الكنائس ودخول المبشرين والقس، مع محاربتهم السنة وأهلها[١٢].

ومن كلمات شيخ الإسلام ابن تيمية (الخالدة) والمهمة في هذا الموضوع، والتي إذا طبقتها على الواقع واستقرأت من خلالها وقائع التاريخ؛ رأيت صدقها كالشمس، حيث قال - رحمه الله -: «فلينظر كل عاقل فيما يحدث في زمانه، وما يقرب من زمانه من الفتن والشرور والفساد في الإسلام، فإنه يجد معظم ذلك من قبل الرافضة، وتجدهم من أعظم الناس فتناً وشرّاً، وأنهم لا يقعدون عما يمكنهم من الفتن والشرور وإيقاع الفساد بين الأمة»[١٣].

ونحن قد علمنا بالمعاينة والتواتر أن الفتن والشرور العظيمة التي لا تشابهها فتن، إنما تخرج عنهم[١٤].

(١٠) «عقيدة الشيعة» دونلد سن (ص ٣٠٢).
(١١) «لمحات اجتماعية» (ص ٧٧-٧٨).
(١٢) انظر تفاصيل ذلك في: «تاريخ الصفويين» (ص ٩٣) وما بعدها، وانظر: «حاضر العالم الإسلامي» للدكتور جميل المصري (ص ١١٧).
(١٣) «منهاج السنة» (٣/٢٤٣).
(١٤) «منهاج السنة» (٣/٢٤٥).

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

دحض حجية التشيع

د. الشفيع الماحي أحمد(*)
shaf.2030@yahoo.com

اعتمد علماء الإسلام في توثيق الأحاديث المرويّة عن رسول اللّه ﷺ على الإسناد، وذلك للاطمئنان والتأكد من صحته ونسبته إليه، إثباتاً أو نفياً؛ لأن طبيعة الإسناد تقتضي رفع كل خبر وإيصاله إلى قائله، فيقال حدثنا فلان عن فلان عن فلان، ومن هنا عُدَّ الإسناد طريقاً إلى المتن، أي ما ينتهي إليه السند من الكلام.

والإسناد في حقيقة أمره هو الحكاية عن طريق متن الحديث، أو رفع الحديث إلى قائله، أو بمعنى آخر توثيق الخبر وتقويته؛ وكل هذا مشعر بالصدق من جهة، وبالأمانة من جهة أخرى، وهو معيار للأخذ به وقبوله، أو رده ورفضه.

(*) الخرطوم، جامعة النيلين – كلية الآداب – شعبة الفلسفة.

ولا يعد الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ صحيحاً في نظرهم إلا إذا تتابعت سلسلة الإسناد من غير انقطاع، وكانت تتألف من أفراد يوثق بروايتهم. وتحقيق الإسناد جعلهم يقتلون الأمر بحثاً، ولم يكتفوا فقط بتحقيق أسماء الرواة وأحوالهم لمعرفة الوقت الذي عاشوا فيه وأحوال معاشهم ومكان وجودهم ومن منهم كان على معرفة شخصية بالآخر؛ بل بحثوا أيضاً عن قيمة المحدث صدقاً أو كذباً، وعن مقدار تحريه الدقة والأمانة في نقل المتون؛ ليحكموا أي الرواة كان ثقة بروايته.

وصحة الإسناد هي التي تقام عليها الحجة الدالة على صدق الرواية أو كذبها، فلو تجادل متجادلان فإن المفاضلة بينهما لا تتم إلا بالحجة، ولا تقام الحجة إلا برواية أو خبر يثبت أنه مسند إسناداً تقوم عليه الحجة المرادفة للدليل، وإذا لم يُعلم له إسناد فلا يثبت ولا يقام عليه الدليل، لأجل هذا قيل: إن الخبر الذي لا سند له كاللقيط الذي لا نسب له.

ولعل تلك القاعدة الصارمة والدقيقة لتحري الصحة في كل رواية وخبر هي مما أكرم الله به الأمة الإسلامية، وخصَّ به الإسلام دون سائر الأديان؛ حفاظاً للدين ورعاية له، حتى عُدَّ الإسناد سنة من السنن التي بها يترجح الحق من الباطل، وبها يعلو الصدق على الكذب، فيطمئن القلب وتسكن النفس.

يقول ابن المبارك: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا سئل وقف وتحير».

وعلى أي حال فإن الأخبار والروايات المسندة إسناداً لا شك فيه، قد حظيت بصفة فوق صفة العلم والمعرفة، أي اليقين، وهو أيضاً مما تفردت به الأمة الإسلامية دون سائر الأمم.. واليقين كما يعرفه الغزالي: «الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يصاحبه الاضطراب، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنةً لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً كأن يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته، فأما الشك فيما علمته فلا».

فجملة معاني اليقين إذن تدور حول ارتفاع الشك عن المعلوم ارتفاعاً لا يدخله الريب ولا الجهل والظن والنقص، وثبات العلم على حالة واحدة لا يتغير ولا يتحول ولا يتبدل، ثم يتغلغل في الذات فيبقى فيه من المعارف والعلوم حالها وصفتها، أي اليقين، ومنه يتولد الأمان، وهو الطمأنينة وسكون النفس واستقرارها، فيرى الغائب وكأنه معاين، والرؤية العيانية هي المنبع الأخير لكل يقين.

بيد أن يقين الأمة في معارفها وعلومها ينسب إلى المعارف نفسها، ولا ينسب للأمة ولا عقولها المدركة ولا يصدر عنها، وإضافة صفة اليقين إليها هي من قبيل تحصيل الحاصل؛ لأن اليقين داخل في مفهوم المعارف والعلوم ومتضمن فيها، وهو منها بمنزلة الروح من الجسد، ليكون علماً عليها وحالاً وصفة تجدها الأمة في نفوس أفرادها بأنه من عند الله، فيظهر فيها شيء جديد به تسكن النفس ويطمئن القلب.

وإلى المعنى السابق أشار الرسول ﷺ حين قال: «ما أعطيت أمة من اليقين أفضل مما أعطيت أمتي».

فأمة محمد ﷺ نالت من الفضل والشرف والإكرام على الأمم باليقين الذي أيدت به في علومها ومعارفها، وبه انكشفت لها الحجب والغيوب، حتى صارت الحقائق لها مشاهدة ومعاينة، وبه عصم الله الأمة وحفظها من الاعتقادات الباطلة والمعارف والعلوم التي تضر ولا تنفع، فعبدت الله وكأنه حاضر بينها.

فلا عجب إن اقترنت أعمال الأمة بيقينها، واتحد اليقين بالأعمال في وحدة لا انفصام لها، فخرجت أعمالهم مطيبة باليقين، فيقول السهروردي معبّراً عن شدة الارتباط بين اليقين والعمل عند أمة محمد ﷺ: «لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه، فكأن اليقين أفضل العمل؛ لأنه أدعى إلى العمل، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية، وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية».

إن معارف وعلوم أمة محمد ﷺ تتَّحد وعلى نحو مباشر بالإيمان، فيكونان نوراً واحداً، لا فرق بينهما، اللهم كالفرق بين الأعمى والبصير إذا أخبرا بطلوع الشمس؛ فإن إخبار البصير بالمشاهدة بخلاف إخبار الأعمى، لكن المشاهدة هنا والرؤية بالقلب تسمى يقيناً، واليقين في القلب كالبصر في

العين، فيرى القلب ويشاهد ما غاب عن البصر.

الشـــيعة كاليهود والنصارى لا يكترثـــون كثيراً بصحة المنقول حديثـــاً كان أو خبراً ورواية، وبالتالي فلا عناية لهم ولا اهتمام بالإسناد، ولا خبرة لهم بالأسانيد وطرق التمييز بين رواة الأحاديث والأخبار وعدالتهم التي هي قوام الصحة وعمود الإســـناد، ولا ســـائر الأدلة التي يُعرف بها صحيح المنقـــول من الكاذب والضعيـــف.. أي لا توجد عندهم على الإطلاق أسانيد صحيحة ولا روايات متصلة يحتج بها عند الخلاف وبها يكتمل الدين والتدين.

يقول ابن تيمية عن هذه الحقيقة البارزة في التشـــيع: «الرافضة أقل الناس معرفة بالإســـناد، وهـــم أقل معرفة وعناية به، إذ كانوا لا ينظرون في الإســـناد ولا في ســـائر الأدلة الشرعية الفعلية هل توافق ذلك أو لا توافقه، ولهذا لا يوجد لهم أسانيد متصلة صحيحة، بل كل إسناد متصل لهم فلا بد أن يكون فيه ما هو معروف بالكذب أو كثرة الغلط».

ويقـــول أيضاً: «ليس للشـــيعة أســـانيد متصلة برجال معروفين مثل أســـانيد أهل الســـنة حتى ينظر في الإسناد وعدالة الرجال، بل إنما هـــي منقولات متقطعة في طائفة عُرف فيها كثرة الكذب وكثرة التناقض في النقل».

ومعنى هذا أن الشـــيعة لا اهتمام لهم بمعرفة الحديث صحيحه مـــن كاذبه، ولا يحفلون بآثار الصحابة حتى يقفوا علـــى طرقهم ويردّون كل ما تنازعوا فيه إلى الله ورســـوله، وجل اعتمادهم على روايات منقولة أو منســـوبة لآل البيت فيها الصادق والكاذب.

ولما تنبَّه الشيعة فيما بعد إلى هذا الخلل الخطير الذي قـــد يفضي إلى تجريد المذهب برمتـــه من الصدق ويدمغه بالكـــذب؛ وضعوا لصحـــة الأخبار والروايـــات المنقولة عن أئمتهم ثلاثة أصول تقوم مقام الإســـناد عند أهل الســـنة، وهي:

- أن يكون الحديث منقولاً عن أحد الأئمة المعصومين، إذ هم بمنزلة النبي ﷺ لا يقولون إلا حقاً، وقول النبي حجة، وكل حديث لهم هو قطعي الصدور، فلا يحتاج إلى سند.
- إن كل ما يقوله واحد من هؤلاء فإنما يقوله نقلاً عن الرســـول ﷺ، وقد روى عن كل واحد منهم قوله: «أنا أنقل لكـــم ما أقوله عـــن النبي»، أي أن كل مـــا قاله واحد منهم فالنبي قائله، فالناس أخذوا عن الناس، أما هم فأخذوا عن رسول الله ﷺ.
- إن إجمـــاع فقهائهم هو قطعـــاً إجماع آل البيت، وكل منقول أو مروي عن أحدهم فهو بمنزلة إجماعهم عليه.

وبطبيعة الحال فأصولهم تلـــك باطلة لا يعتمدون فيها على القرآن أو السنة أو الإجماع، لكن على إمامهم المعصوم وحده، وعصمته هي الحجة والبرهان في صحة المروي عنه، وليس هذا من الإســـناد الذي تقوم عليه الحجة، ويقوى به البرهان؛ لأن الخبر أو المنقول لا يعد صحيحاً إلا إذا تتابعت فيه سلسلة الإسناد من غير انقطاع، أي صحة النقل، وهذا ما لا يعرفه الشيعة ولا يعلمون به.

فإذا كانت تلك هي حجية المنقول والمروي عند الشيعة، فإن الأدلة التي ســـاقها فقهاء المذهب لبيان صدقه وإثبات صحته لا تخرج في مجملها عن اثنين:

١ يكـــون الدليـــل فيها صحيحـــاً وصوابـــاً، وذلك كاســـتدلالاتهم على إثبات المتعة والخُمـــس وغيرهما مما ورد ذكـــره في القرآن، لكنهم يؤولونها على مقتضى مذهبهم تأويلاً لا يعرفه علماء السنة ولا نقلة الشريعة، وجلها مردود عليهم، ومطعون فيه، وبعيد تماماً عن تأويلاتهم، ولا تســـلم في الغالب من الاعتراض والتفنيد والدحض، ولا تفيد على الإطلاق العلم اليقيني.

٢ الوضـــع أو الاختلاق البين والكذب الصريح، وهذا النـــوع من الأدلة هو الذي بُني عليه التشـــيع، وعليه ارتكز، وفوق دعائمـــه أقيم، وهو الذي ضمن لـــه البقاء وتكفّل له بمواجهة الخصوم والمعارضين.

فوضعوا الروايات والأحاديث على لسان رسول الله ﷺ وعلى ألسنة أئمتهم المعصومين، دون اكتراث لتحري الصدق والأمانة والعدل، وبلا اهتمام بطرق التوثيق العلمي المتعارف عليها؛ فملؤوا كتبهم عن آخرها بالأكاذيب والأباطيل والأوهام والمستحيلات بكثرة مذهلة، وجسارة فريدة، ووقاحة مفرطة، تجعل رواة الصدق وطلاب العلـــم يجفلون فزعاً وخوفاً من ســـماعها. أما إقامة الحق الذي دعا إليه الأنبياء والحكماء والمصلحون، فهو آخر ما كانوا يفكرون فيه.

ولا يســـتند التوثيق عندهم إلا إلى التشـــيع والعصبية والهوى والبغض والحب، فيخترعون من عند أنفسهم كل ما

فيه تعضيض أو دفاع عن التشـــيع أو نصرة له، ثم ينسبونه إلى الرسول أو واحد من أئمتهم، فكان الواحد منهم يرى أن تشـــيعه لا يكتمل إلا إذا أضاف إليه من عنده ما يعتقد بأن في ذلك تعزيز وتقوية له، حتى اشـــتهروا بأنهم أكثر الفرق المنتسبة إلى الإسلام كذباً وتزويراً وافتراء، وبلغوا فيه درجة حيَّـــرت العقلاء ودفعت بكثير من جهابذة أهل الســـنة إلى التحذير من رواياتهم والتنبيه إلى كذبهم.

فيقول ابن تيمية ناقـــلاً ما أجمع عليه الناس من قبله: «وقـــد اتفق أهل العلـــم بالنقل والرواية والإســـناد على أن الرافضة أكذب الطوائف، والكـــذب فيهم قديم، ولهذا كان أئمة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب».

ويقول شريك القاضي، وكان معروفاً بالتشيع مع اعتدال فيه: «احمل عن كل من لقيتـــه إلا الرافضة، فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه ديناً».

وســـئل الإمام مالك عن الرافضة فقال: «لا تكلمهم، ولا ترد عليهم، فإنهم يكذبون».

وفي المعنى نفســـه يقول ســـعيد بن هارون: «يكتب عن كل صاحـــب بدعة إذا لم يكن داعيـــة، إلا الرافضة، فإنهم يكذبون».

وقال ابن المبارك معبّراً عن شدة ارتباط الكذب بالشيعة: «الدين لأهل الحديث، والكلام والحيل لأهل الرأي، والكذب للرافضة».

ويقول الأعمش في معنى قريب من ذلك: «أدركت الناس وما يسمّونهم إلا الكذابين».

وقال الشـــافعي في شـــهادته عنهم: «ما رأيت في أهل الأهواء قوماً أشد بالزور من الرافضة».

وقد أدت كثرة الكذب على الأئمة المعصومين إلى نتيجة طبيعية هي كثرة المتناقضات في الرواية الواحدة والحديث الواحد، والتي تصل في بعض الأحيان إلى العشـــرات، وفي أحيـــان كثيرة تتضـــارب فيما بينها إلى حـــد لا يمكن معه التوفيق بينها ولا الاهتداء إلى الصادق منها والكاذب.

غير أن الخلاف فيما بينهـــا ليس خلافاً عادياً، بل هو خلاف في كل شـــيء وعلى كل شيء، ولا يقتصر فقط على المســـائل الفقهية، بل يمتد إلى دعائم التشـــيع ومرتكزاته الأصلية، بحيث لم يسلم شيء من الاختلاف حوله، وتضاربت الآراء فيه حتى غدا الآن من المسلمات، وهو أنه:

• لا توجد عند الشيعة مسألة واحدة إلا وبإزائها مسألة تناقضهـــا، ولا خبر إلا وفي مقابله ما يضاده، ولا حديث إلا وهناك ما يعارضه.. ومنها خلص كثير من علماء المســـلمين إلى أن الشـــيعة يختلفون في المسألة الواحدة إلى ٢٠ أو ٣٠ قولاً أو أزيد، بل لم تبقَ مســـألة فرعية لم يختلفوا فيها أو بعض متعلّقاتها.

واعترف علماء الشـــيعة أنفسهم بهذه المسلّمة، فقال أبو جعفر الطوســـي: «ذاكرني بعض الأصدقـــاء أبره الله ممن أوجـــب حقه علينـــا بأحاديث أصحابنا أيدهـــم الله ورحم الســـلف منهم، وما وقع فيها من الاختلاف والتباين والمنافاة والتضـــاد، حتى جعل مخالفونا ذلك من أعظم الطعون على مذهبنا، وتوافوا بذلك إلى إبطال معتقدنا.

وذكروا أنه لم يزل شيوخكم السلف والخلف يطعنون على مخالفيهم بالاختلاف الذي يدينون الله تعالى به، ويشـــنعون عليهـــم بافتراق كلمتهم في الفروع، ويذكرون أن هذا مما لا يجوز أن يتعبد به الحكيم، ولا أن يبيح العمل به الحليم.

وقد وجدناكم أشد اختلافاً من مخالفيكم، ووجوب هذا الاختلاف منكم مع اعتقادهم بطلان ذلك دليل على بطلان الأصل، حتى دخل عليّ جماعة ممن ليس لهم قوة في العلم، ولا بصيرة بوجـــوه النظر ومعاني الألفاظ، وكثير منهم رجع عن اعتقاد الحق لما اشـــتبه عليه الوجه في ذلك وعجز عن حل الشبه فيه».

وقال السبحاني عن الفقه الشيعي وحده دون غيره: «عندما نطالع كتابي الوسائل والمستدرك مثلاً، نرى أنه ما من باب من أبواب الفقه إلا وفيه اختلاف في رواياته، وهذا أدى إلى رجوع بعض ممن استبصروا ذلك عن مذهب الإمامية».

ولم يقف الأمر عند حد الاعتراف بكثرة الكذب وحده في مروياتهم عن أئمتهم المعصومين، بل إن العلامة الحلي جمع اختلافات علماء الشيعة وفقهائهم منذ بداية ظهور التشيع إلى زمانه في كتاب سماه (مختلف الشيعة)، بلغ عدد أجزائه عشرة حوت جميع أبواب الفقه.

وفيه أظهر بوضوح لا لبس فيه كل الاختلافات بين الفقهاء التي لم تقتصر على مسائل بعينها تتيح بحكم طبيعتها الجدلية تعدد الآراء، بل امتدت لتشمل جميع موضوعات الفقه بغير استثناء، والخلاف حولها خلاف شديد وحاد قد يصل في أحيان كثيرة لأن يفتي بعضهم بالتحليل والبعض الآخر بالتحريم.

يقول العلامة الحلي في مقدمة كتابه عن تلك الخلافات: «فإني لما وقفت على كتب أصحابنا المتقدين، ومقالات علمائنا السابقين في علم الفقه، وجدت بينهم خلافاً في مسائل كثيرة متعددة ومطالب عظيمة متبددة، فأحببت إيراد تلك المسائل في دستور يحتوي على ما وصل إلينا من خلافاتهم في الأحكام الشرعية والمسائل الفقهية».

ويكفي لبيان سعة ذلك الاختلاف في الروايات وتعدد أوجهها، ذكر شواهد قليلة من الدعائم التي أقيم عليها التشيع، ومنها تفرعت سائر أدبياته، بادئين بتحريف القرآن:

فمن المعروف أن عقيدة تحريف القرآن من العقائد التي رسخت في المذهب الشيعي حتى غدت لثباتها وتوقف التشيع نفسه عليها من المسلمات، وبلغت الروايات المتداولة عن جوانب التحريف في القرآن حداً من الكثرة والشيوع في مؤلفات الفقهاء والعلماء أغرى النوري الطبرسي بجمعها في كتاب أسماه وعلى وجه القطع واليقين (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب)، غير أن هناك من فقهاء وعلماء المذهب في القرون الأولى للهجرة من ينكر تحريف القرآن، منهم: السيد المرتضى مؤلف (نهج البلاغة)، وأبو جعفر الطوسي، وأبو علي الطبرسي صاحب تفسير (مجمع البيان)، وابن بابويه القمي الملقب بالصدوق، وهو القائل: «إن من نسب للشيعة هذا القول - أي تحريف القرآن - فهو كاذب، لأنه لم يسمع بمثل هذه الروايات، ولو كانت موجودة فعلاً لعلم بها أو سمع بها».

وهو أيضاً ما يصر عليه المعاصرون من علمائهم، فيقول الخوئي: «إن حديث تحريف القرآن حديث خرافة وخيال لا يقول به إلا من ضعف عقله، وأما القائل المنصف المتدبر فلا يشك في بطلانه وخرافته».

ولا يشذ زواج المتعة في كثير عن تحريف القرآن، فهو أيضاً من الممارسات المتأصّلة في المذهب ومن دعائمه، ويحظى بالرضا والقبول لدى الجمهرة العظمى من الفقهاء، بل وحثّ شيعتهم عليه لما فيه من الأجر والثواب، ومع ذلك فهناك كثير من الروايات عن الأئمة المعصومين تذهب إلى تحريمه وتصفه بأقبح الأوصاف، منها قول الإمام الصادق عندما سئل عن المتعة، فرد قائلاً: «ذلك الزنا».

وقوله أيضاً إجابة عن السؤال نفسه: «لا تدنس بها نفسك».

أي هي محرمة تحريماً قاطعاً تفضي بمن يواقعها إلى تلطيخ نفسه بالأوساخ.

وكان إضافة إلى ذلك يعنّف شيعته ويحذرهم من المتعة قائلاً: «ألا يستحي أحدكم أن يرى موضعاً فيحمل ذلك على صالحي إخوانه وأصحابه».

أما الخُمس فهو حق لآل البيت في أموال شيعتهم ومكاسبهم، لكن هناك روايات عن الأئمة المعصومين أجمعت على إعفائهم منه، وهي روايات متداولة في أمهات كتب الفقهاء المتقدمين والمتأخرين، وظلت الآراء مختلفة ومتضاربة حول الخُمس لحين قيام الدولة الصفوية، فأوكل عبد العال الكركي مهمة صرف حق الإمام إلى الحاكم الشرعي.

وأخيراً انتهت الاجتهادات إلى ضرورة تسليم الخُمس إلى الفقيه، ليس باعتباره نائباً عن الإمام، وإنما باعتباره ولياً وزعيماً وإماماً للشيعة.

ومما تفرع عن دعائم التشيع ولا يزال الخلاف محتدماً حوله إلى يومنا هذا، وجوب صلاة الجمعة التي كانت الشيعة تقيمها وتحافظ عليها حتى أواخر القرن الخامس الهجري، ولم يشترط الفقهاء فيها غير بلوغ عدد المصلين

كماله المعروف، دون ذكر أي شـــرط لحضور الإمام المعصوم أو من ينوب عنه في الولاية والإمامة.

وفي فترة لاحقة قفز شـــرط الإمـــام العادل كأحد أهم شـــروط إقامة الجمعة، مع حصر دلالة اسم الإمام العادل في شـــخص الإمام المعصوم وحده، عندها اشـــترط بعض الفقهاء حضور الإمام أو من ينوب عنه، وبما أن الإمام غائب غيبتـــه الكبرى، ولا يعرف له تاريخ معـــين لظهوره؛ فاعتبر بناء على ذلك انتفاء أحد شـــروط صلاة الجمعة، وهو إذن الإمـــام المهدي، ولما كان ذلك مســـتحيلاً خلص الفقهاء إلى تجميد صلاة الجمعة، أو عدم وجوبها، أو التصريح المباشر بحرمتها، وتقوم مقامها صلاة الظهر.

غير أن هناك قلة من الفقهاء، مثل الحر العاملي، ممن أفتوا بوجوب صلاة الجمعة في عصر الغيبة، في حين مالت الأكثريـــة أمام قطعية النص الصريح بوجـــوب إقامتها إلى إضافة شرط جديد وهو حضور الإمام شخصياً، وفي غيبته تســـقط الجمعة من الوجوب العيني، فيكون للشيعة الخيار بين إقامتها أو صلاة الظهر.

وتشـــدد الصفويون إبان فترة حكمهـــم على إقامة صلاة الجمعة، وكان المسجد الرئيســـي في عصرهم يسمى مسجد الجمعة، ولا توجد مدينة كبيرة في إيران إلا وفيها مسجد من هذا النوع، وكان إمام تلك المساجد يلقب بإمام الجمعة، ويعيّن بمرسوم خاص من الملوك الصفويين، وكان المنصب على درجة عالية من الأهمية، بحيث لا يناط به إلا كبار العلماء والفقهاء.

علـــى أن الخلاف ظل كما هو عليـــه بين فقهاء العصر الصفوي أنفســـهم، كالشـــيخ إبراهيم القطيفي، الذي أفتى بحرمة صلاة الجمعـــة في عصر الغيبة، معارضاً بهذا عبد العال الكركي الـــذي رأى إباحتها، وجـــوّز للفقهاء إقامتها بوصفهم نواباً عن الإمام.

ولا يزال الخلاف قائماً إلى يومنا هذا بين فقهاء الشيعة، فمنهم من يعارض إقامة صلاة الجمعة، ومنهم من يتمسَّـــك بالاجتهادات القديمة، فتارة تقام في مساجدهم، وتارة تترك فيصلون بدلاً عنهـــا الظهر، ومنهم من يحتاط فيجمع بينها وبين الظهر.

وخلاصـــة القـــول وصفوتـــه أن تلـــك الخلافـــات والمتناقضات، زائداً عليها افتقار روايات الأئمة المعصومين وأحاديثهم للإسناد؛ هي التي أدت مباشرة إلى عجز التشيع برمته عـــن الثبات عند أدنى حـــدود الفحص والتدقيق، وضعفه وتهافته أمـــام التحقيق المتأني المتروي، ومن هذا حالـــه ومنزلته فلا حظ له من الحق والحقيقة، وهو تمام معنى الباطل؛ وذلك لأن الباطل هو ما لا اســـتقرار له ولا مكث، وكل ما لا استقرار له ولا مكث له على حالة واحدة هو بغير شـــك ضائع هدراً، وكل ضائع هدراً هو في حكم المعدوم المنتفي، أو بمعنى أوســـع هو ما لا ينتفع به أصلاً، حتى شُـــبّه في غالب أحواله بالقبيح الذي يضر ولا ينفع، ما دفع بالتشـــيع في النهاية ليحـــل محله الطبيعي ضمن المعدوم، وفي دائرة كل ما لا نفع فيه.

قراءة في مفهوم الأقلية بالقرآن الكريم

أنور بن قاسم الخضري(*)

دلالة المصطلح

«الأقلية» في اللغة ضد «الأكثرية»، و«القِلَّة» في اللغة العربية تقابل «الكثرة»، وهما يدلان على معنى عددي ليس إلا، ومنها القليل، والأقل. وفي القرآن الكريم: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٤].

ومصطلح «الأقلية» مصطلح شائع في المجالات: العلمية والإعلامية والسياسية، ولم يتم استخدام هذا الاشتقاق بمفهومه المعاصر إلا في القرن العشرين، حيث لم يرد له أي ذكر في مصادر اللغة والتراث. وقد ظهر هذا المصطلح كتعبير سياسي يعبّر عن تكوين عضوي (أصغر) يختلف عن المجتمع الحاضن (الأكبر) عرقياً أو دينياً أو طائفياً. والمصطلح يحمل دلالات وصفية بوجود تباين بالضرورة بين هذا التكوين وذلك المجتمع، وهي حقيقة اجتماعية لا ينكرها العقل السليم في أي بيئة بشرية. ومن ثمَّ فإن طبيعة العلاقة بين العضو (الصغير) والجسد (الكبير) قد تأخذ أشكالاً متعددة من أقصى صور التلاحم والارتباط إلى أقصى صور التنافر والصراع.

ووجود أقلية ما يعني وجود تحديات صعبة تتعلق بالهوية والقانون والاندماج الاجتماعي. لذلك؛ فقد توزعت الدراسات المعاصرة في هذا الشأن على علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والسياسة والحضارة والثقافة والوراثة والنفس.

ومن أهم قضايا التصور الإسلامي في العقيدة والدعوة والتشريع، وأوضحها حضوراً؛ مسألة الأقلية الدينية، سواء في إطار التدين مقابل الانحراف، أو في إطار مستوى هذا التدين داخل المجتمع المتدين ذاته. ولأن هذه الحقيقة سنة كونية دائمة، فقد واجه المسلمون في هذا العصر أشكالاً منها، وظهر ما بات يعرف بـ«فقه الأقليات المسلمة» استجابة لنشوء هذه الظاهرة في نطاق واسع.

(*) رئيس مركز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث – صنعاء.

إن من بين السنن الاجتماعية التي تقابل الأنبياء وورثتهم في كل مرحلة زمنية تعود فيها البشرية إلى درك الانحطـــاط، هي قلة الأتبـــاع وكثرة المخالفين. لذلـــك؛ فمفهوم القلة – أو ما يُعبـــر عنها حديثاً بـ (الأقلية) – مفهوم حاضـــر ومتكرر في القرآن، وهو يميـــز لنا البشـــرية وفقاً لتصنيفها علـــى قيم العلم والإيمان والعمل إلى قسمين: أقلية وأكثرية.

ففي شـــأن العلم يخبرنا القـــرآن أن أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأكثر مـــن صيغة[1]، وهذا العلم المنفي عنهم هو العلم المتعلق بالرســـالة والإيمان والســـنن الإلهية والشـــرائع الســـماوية، وليس العلم الدنيوي، لذلك يقـــول تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُـــونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُـــونَ﴾ [الأنبيـــاء: ٢٤]؛ فغالبية أمم الأرض خلَّفت من العمران والآثار والمعارف ما يدل على أن البشرية تســـجل تفوقها في هذا المجال في كل دورة تاريخية تنهض منها: ﴿وَعْـــدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْـــدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّـــاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَـــنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الـــروم: ٦، ٧]. وإذا كانت هذه الأكثريـــة تبني معارفها الدنيوية على اليقين، إلا أنها في شأن الغيب والآخرة تخبط خبط عشواء، وتلتمس الهدى في الظنون: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

وبالرغم من أن رسالات الأنبياء – جميعاً – تتوافق مع مقررات الفطرة وبدهيات العقول، إلا أن البشرية غالباً ما واجهت الرســـل بالتكذيب: ﴿اتَّبِعُـــوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وأنكرت الحقيقة الكبرى: ﴿...أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]؛ وذلك رغم ما أقيم عليهم من البراهين: ﴿وَلَقَـــدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّـــرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّـــاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠]. لذلك؛ يســـلي القرآن على خاطر الرسول ﷺ بهذا التقرير: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْـــمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُـــونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[2].

وإزاء هذا الإنـــكار وتغييب العقل، تتفق النتيجة مع المقدمـــات.. فـ ﴿لَقَدْ حَـــقَّ الْقَوْلُ عَـــلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُـــونَ﴾ [يس: ٧]، ﴿وَمَـــا أَكْثَرُ النَّـــاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِـــينَ﴾ [يوســـف: ١٠٣][3]، وإن آمنوا فـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. وإذا غاب الإيمان غابت ثمرته (العمل الصالح)، ولم تُســـتَخْدَم النعـــم وتوظف الطاقات فيما وهبـــت لأجله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَـــذُو فَضْلٍ عَلَى النَّـــاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْـــكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣]، رغـــم إقرارهم بنعم الله عليهم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، ويصدق في الناس قوله ســـبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣][4].

بهذه المقابلة يتحدث القرآن عن الأقلية والأكثرية، وليس في ظل المقاييس العرقية أو الإثنية أو السياسية، إنها الأقليـــة العالمة والمؤمنة والشـــاكرة، التي قاومت إغواءات الشيطان: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَـــوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَـــهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢][5]، واهتـــدت بفضل الله تعالى عليها: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّـــيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، فكانت الناجية في مســـيرة الدعـــوة عبر التاريخ، من لدن نوح الذي: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، حتى يرث الله الأرض ومن عليهـــا، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُـــمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

---

(١) انظر: الأعراف: ١٨٧، يوسف: ٢١، ٤٠، ٦٨، الروم: ٦، ٣٠، السجدة: ٣٨، سبأ: ٢٨، غافر: ٥٧، الجاثية: ٢٦، الأنعام: ٣٧، الأنفال: ٣٤، يونس: ٥٥، القصص: ٥٧، الدخان: ٣٩، النمل: ٦١، السجدة: ٧٥، ١٠١، الزمر: ٢٩.

(٢) المائدة: ١٠٣؛ وانظر: العنكبوت: ٦٣.

(٣) ويقول تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، الرعد: ١؛ ويقول سبحانه: ﴿... وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الشعراء: ٦٧، و١٠٣، و١٢١، و١٣٩، و١٥٨، و١٧٤، و١٩٠.

(٤) يقول تعالى: ﴿... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ البقرة: ٢٤٣، يوسف: ٣٨؛ ويقول: ﴿... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠]، وفي المقابل يخبر سبحانه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الأعراف: ١٠، المؤمنون: ٧٨، السجدة: ٩.

(٥) لقد تجرأ الشيطان في الإعلان عن حقده لبني آدم سالكاً في غوايتهم كل السبل: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٧، ١٨].

ويقابلها الأكثرية التي: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، والتي قابلت الرسالة بالموروث مهما كان زيفه وضلاله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦٩ – ٧١]، وأبت الاستماع للحق: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٣، ٤]، وكفرت بلقاء الآخرة: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وكما يُجري القرآن الكريم مقابلة بين الفئتين في الدنيا، يُجري المقابلة بينهما في الآخرة. فتلك القلة المؤمنة التي استعلت بإيمانها، وقامت بواجبها، واستجابت لنداء الفطرة ودعوة الرسل؛ تجزى بالجنة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠ – ١٤]، ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٢٧ – ٤٠]؛ في حين أن تلك الكثرة تواجه اللوم الإلهي: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ – ٦٢]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. إنه الجزاء الوفاق على مواقف هذه الأكثرية التي لم تنتفع بما منحت: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وهو الجزاء الذي توعّد الله به إبليس وأتباعه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢ – ٨٥].

إن القرآن يُفَصِّلُ في بيان موقف هذه الأكثرية الهالكة التي تعددت عليها الحجج والبراهين بما يكفي لهدايتها، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، حين يشير إلى الدافع لتكذيبها بالحق: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]. لذلك؛ يحذر القرآن الرسول وأتباعه من إطاعة المخالفين للحق وإن كانوا كثرة بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦][1]، كما يحذرهم من الاغترار بهذه الكثرة: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

والحكمة في استطراد القرآن لبيان هذه السنة الكونية تتجلى في أمور عدة، منها – والله أعلم –:

– أن في هذا البلاغ المبين لهذه الظاهرة الإنسانية تأكيد للأنبياء وورثتهم على صعوبة المهمة التي يقومون بها، حيث إنها بطيئة النتائج، وقليلة الثمرة، وباهظة التكاليف، لذلك؛ فإن عليهم أن يوطنوا أنفسهم على صور التكذيب والجحود، والسخرية والاستهزاء، والإيذاء والتعذيب، والعدوان والبغي.

ففي شأن التعنت والتكذيب والتشكيك يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

وفي شأن السخرية والاستهزاء يقول تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، ويقول: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

---

(١) وقد أكد المعنى ذاته قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وفي شأن الإيذاء والتعذيب يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وفي شأن العدوان والبغي يحكي القرآن مواجهة المرسلين وأتباعهم لبغي أعدائهم كعادة جارية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

– كما أنَّ فيه تهيئة لنفوسهم، حتى لا يدخل عليهم اليأس والقنوط ابتداء، وهم يرون الأكثرية تعرض عنهم، ظانين أن نجاح رسالتهم أمام الله يقاس بكثرة الأتباع، ما قد يُدخِلُ الحزن والهم في نفوسهم. لذلك؛ جاء الخطاب القرآني للرسول ﷺ وورثته من بعده بالتوجيه إلى القيام بالبلاغ وترك شأن الهداية لله، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ..﴾ [الشورى: ٤٨]؛ فقَدَرُ الله الكوني ماضٍ على كل أمة في هداية من يستحق الهداية وغواية من يستحق الغواية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٦، ٣٧]. لذلك قيل للرسول الكريم مع حرصه على هداية الناس: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ومع محبته ذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]؛ كما نهي عن الحزن على أهل الضلالة في أكثر من خطاب، فقد قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وفي سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥ – ١٢٨]، وفي سورة النمل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]. وقد جاء هذا النهي بعد أن بلغ الهم برسول الله ﷺ من تكذيب قومه له مبلغه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، حتى ناقشه ربه في هذا التكلف منه ﷺ في مطلع سورة الشعراء[1]؛ وكان التفكير أخذ برسول الله مآخذاً عاتبه فيه ربه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ...﴾ [هود: ١٢]، وخاطبه في موضع آخر بلغة أشد: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]؛ وجاءت الوصية الإلهية له بالقناعة الواقعية: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]؛ ثم قال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

– أن لا يستوحش الأنبياء بقلّتهم، أو يشعروا في ظل هذه القلة بالذل والهوان، فيستسلموا إحساساً بالضعف المادي، ويتخلوا عن نصرة دعوتهم.. يقول تعالى مخاطباً الصحابة، وهم يومئذ قليل: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وبشرهم بسنته الكونية: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقصَّ عليهم قصة القلة المؤمنة التي ثبتت مع طالوت في جهاده[2]، وتوعد عدوهم بالهزيمة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣]؛ وامتن عليهم

(١) الآيات: ١– ٩.
(٢) في سورة البقرة.

بتحقيق هذه السنة في معركتهم الفاصلة مع أعدائهم (يوم الفرقان): ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾... إلى أن قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦]، والذلة المشار إليها في الآية ذلة العدد كما قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦].

- أن يأخذ الأنبياء وأتباعهم لهذه الحقيقة تدبيرها السياسي، بحيث لا يوغلوا في الأماني والأحلام الكاذبة بعيداً عن أرض الواقع، ولا يقوموا بعمل يقضي على وجودهم ودعوتهم في مهدها، ولا يُستَفزُّوا إلى شيء من ذل؛ فهم مطالبون برعاية هذه الحقيقة في تحركهم في الوسط الاجتماعي وعلى الصعيد السياسي بشكل متزن، فلا رهبة وخوف مُقْعِداً، ولا يأس وقنوط مُحبِطاً، ولا تَطلُّع مُتهَوِّراً، ولا تعَجُّل مُهلِكاً، بل سياسة شرعية حكيمة تراعي القدرات والظروف والفرص.

ومن المؤسف أن بعضاً ممن يتصدر لتوجيه العمل الإسلامي يخطئ في فهم مسيرة الأنبياء الدعوية ومنهجهم الحركي، حيث يقوم بقراءة التكاليف الحركية الشرعية منفصلاً عن عدة أمور، منها:

- الإمكانات والقدرات التي امتلكها الرسل وأتباعهم عند مخاطبتهم بأي تكليف خوطبوا به، حيث إن التكليف الإلهي لعباده منوط بالقدرة والاستطاعة، يقول تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي شأن الإيمان يقول سبحانه: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

- الظروف والبيئة التي أحاطت زمن قيام التكليف، فالخطاب الإلهي راعى هذا الجانب، فأوامر المولى تعالى للبشر واقعية، تلامس الأحوال والأوضاع التي تحيط بالمكلفين، كما تراعي التغير فيها، يقول تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، ويقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

- المقاصد والغايات التي شرعت لها هذه التكاليف، وهذا يتطلب قدراً من فقه مآلات الأمور ومدى تطابق النتائج مع هذه المقاصد والغايات. ولنتأمل قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧ - ١٥]؛ نرى كيف يأتي التكليف في إطار المقاصد العادلة والغايات المشروعة.

- الشروط الموضوعية التي يأتي التكليف في ضوئها، فلا يجوز بتر الخطاب الشرعي بعضه عن بعض، وعن الرؤية الكلية للدين بجوانبها وأبعادها النفسية والإنسانية والسننية، وعن الضوابط والمعايير التي يجب أن تتوافر في نموذج التطبيق البشري لتلك التكاليف، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

- صيغة القيام بهـذا التكليف، وهي غالباً صيغ اجتهاديـة في هذا الباب، حيثُ يُتـركُ للفئة المؤمنة فرصة التشـاور وتدبير الأمر تربيـة لها على القيام بمسـؤوليتها اعتماداً على الذات وأخذاً بالأسـباب واستناداً للخبرة والمعرفة والمهارة، حيث يخلط البعض بـين التكليف وبين صيغة القيـام به، فيحيل الصيغة إلى تكليـف (إلهي) ظناً منه أنَّ صُور حركة الجماعة المسـلمة للقيام بمصالحها توقيفية بالأصل! وهذا ما يشـير إليه توجيه الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّـنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنـتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْـبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- اعتبـار عامل الزمن في تحقيقها، ذلك أن أي تكليف مرتبط بزمن بالضرورة، فهناك تكليف مضيق وآخر موسع، وآخر آني أو مشروط. وتضييق البعض للموسع جلب على الأمة النكبات وأوقعها في المطبات، وتوسـيع المضيـق عند آخرين فـوت عليها الفرص وكرس من حالة الانهيار الذي تعيشه والسقوط الذي تنحدر فيه.

وفـي العموم، فالقرآن الكـريم مصدر ثري في تكييف علاقـة القلة بالكثـرة، باعتبـار أنه معني بالدرجة الأولى بضبـط إيقاع حركة الفئة المؤمنة - وهي القلة دائمـاً - في الحياة بجميع صورها، وفي كل جوانبها، ومع كل تحولاتها وتقلباتها، حفاظاً عليها مـن الذوبان وصيانة لها من التآكل وسـعياً بها إلى البقاء والنمو.

وقد قدم القرآن للرسـول الكريم وأتباعه سجلاً حافلاً بالخبرة والأسـوة للقلة المسـلمة في القديم، بنماذج متعددة، وظروف مختلفة، ومعطيات متباينة، لكي يتيح لهذه الأمـة أكبر قدر من الثراء في النظر والتفكير فيما يلائمها خلال مسـيرتها التي ستمتد قروناً حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والقرآن ابتداء يبطل النظرة الوضعية التي تميز الأقليـة في ضوء الجنس والعرق واللغة، بل يراها - في نسقها الطبيعي - عامل إثراء ودليلاً على القدرة الإلهية، يقول تعالى: ﴿يـا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُـم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَـاءً...﴾ [النسـاء: ١]. ثمَّ يخبر سـبحانه أن التنوع الذي حصل في اللغات والأعراق إنما هو بفعل مشيئته سبحانه للتدليل على كمال قدرته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، ومقتضى ذلك تقبل هذا التنوع والاختلاف الكوني والتعامل معه في ضوء الحكمة الإلهية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِـيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، لذلك نهى عن كل ما يثير هذه النظرات العنصرية: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْـخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وسـنة الله تعالى في الدعوات أن يبعث الأنبياء في أقوامهم، وبني جنسهم، وبلغتهم، ملتحمين معهم في حياتهم وعيشـهم، وذلك أدعى للقبول وأبعد من اتخاذ الناس الاختلاف في الجنس أو العرق أو اللغة تبريـراً للرفض ومتكأً للإعـراض - كما هو منظور البشـر الوضعي -. لذلك لمـا كان موسـى - عليه الصلاة والسلام - من بني إسرائيل، وهم في منظور فرعـون وملئه دخلاء علـى أرض مصر، اتهمه الملأ بالتآمر على أهل مصر لإخراجهم، وجعل فرعون من هذه التهمة متكأً لعدوانه على موسى ومن معه: (قَالَ المَـلَأُ مِن قَومِ فِرْعَونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِن أَرْضِكُم فَمَـاذَا تَأْمُرُونَ؛ وقال فرعون: آمَنتُم بِهِ قَبْـلَ أَن آذَنَ لَكُم إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي المَـدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوفَ تَعْلَمُونَ)[1].

والمتأمل في الخطـاب الإلهي إخبـاراً وتكليفاً واعتباراً، يرى مدى اعتبـار ميزان القلة والكثرة في مسـيرة التدافع والصراع الدائم بين الحق والباطل والصلاح والفسـاد والعدل والظلم والخير والشر.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(١) الأعراف: ١٠٩- ١٢٣.

النصرة بالضعفاء

سهم لا ينسى ووعد لا يخيب

■ أحمد عبد المجيد مكي(*)
a_meki2005@yahoo.com

النُّصْرَةُ: هي طلب النصر والعون. والأسباب التي يحصل بها النصر نوعان:

أسباب مادية ملموسة، وهذا النوع هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أي: وَأَعِدُّوا لأعدائكم كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة والآلات ونحو ذلك مما يعين على قتال هم.

ويلاحظ أَنَّ هذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلّقون به وحده حصول النصر والرزق، وفي هذا من قِصَرَ النظر وضعف الإيمان وقلّة الثقة بوعد الله وكفايته ما الله به عليم. فالنصر ليس بكثرة عَدَدٍ ولا عُدَدٍ، وإنَّما هو بيد الله الواحد القهار، الذي يخذل مَنْ يريد خذلانهم مهما بلغوا مِنْ الكثرة والقوة. وفي هذا تنبيه لنا ألَّا نعتمد على الأسباب مهما بلغت، فما هي إلا طمأنينة للقلوب وتَثْبِيت لها على الخير والحق، أَمَّا النصر الحقيقي الذي لا معارض له فهو من عند الله، كما قال

(*) باحث دكتوراة في مقاصد الشريعة.

جلّ شـــأنه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

ولهذا أدب الله عز وجل صحابة نَبِيِّهِ - وهم خيار الخلق - حين أُعْجِبَ بعضهم بكثرتهم في غزوة حنين حتـــى قال قائلهم: «لَنْ نُغْلَبَ اليـــوم عَنْ قِلَّةٍ»، فَوُكِلُوا إِلَـــى هذه الكلمة، فَكَانت الْهَزِيمَـــة فِي الِابْتِدَاءِ، وفرّ معظم المســـلمين من الميدان، واشتدت عليهم الأزمة حتـــى ضاقت عليهم الأرض - على رحبها وســـعتها -، ثـــم ولوا منهزمين، إِلَّا رســـول الله؛ فإنَّه ثبت ولم يَفِرّ، وصمد ولم يتخـــاذل، بل كان يدعو ربه بدعائه الخاشع قائلاً: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَأَنْتَ نَصِيرِي بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أقاتل».. فلما زال الْعُجْبُ عن الصحابة وعرفوا ضعفهم، أنزل الله السكينة عليهم، وأنزل جنـــوداً من عنده يثبتونهم ويبشـــرونهم حتى تحقق النصر.

وأمّـا النـوع الثانـي: فهو الأســـباب المعنويّة، وهي قوّة التوكل علـــى الله، وكمال الثقة بـــه، وقوّة التوجّه إليه والطلب منه. وهذه الأمور تقوى جدّاً من الضعفاء العاجزين الذين ألجأتهـــم الضرورة إلى أن يعلموا حقّ العلم أنّ كفايتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله، وأنّهم في غاية العجز، فتنكســـر بذلـــك قلوبهم، وتتوجّه إلى الله ثقة به وطمعاً في فضلـــه وبرّه ورجاء لما في يديه الكريمتين.

فيُنْـــزِل الله لهم مـــن نصره ورزقه مـــا لا يدركه القادرون، بل ييسّر للقادرين بسببهم من أسباب النصر والـــرزق ما لم يخطر لهم ببـــال، ولا دار لهم يوماً في خيال.

والسر في ذلك أَنَّ لِلَّهِ جنود السماوات والأرض، جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، وهي لفرط كثرتهـــا لا يعلم حقيقتها وعددهـــا وقدرتها إلا هو سبحانه، فهو وحده الذي يكشف عما يريد الكشف عنـــه من أمرها، في الوقت الـــذي يريد وبالطريقة والهيئة التي يريدها، لذا فهي غيب كما قال تعالى: ﴿وَمَـــا يَعْلَمُ جُنُـــودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِـــيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

وقد يَعْجَبُ الإنسان حين يعلم أَنَّ مِنْ هذه الجنود: الضعفاء والمرضـــى وذوي الاحتياجات الخاصة، ولولا ورود النصوص الصحيحـــة في ذلك لكان الأمر محور جدل وأخذ ورَدٍّ، وأسوق من هذه النصوص اثنين:

الأول: ما أخرجه الإمام البخاري في كِتَاب الجِهَادِ وَالسِّـــيَرِ من صحيحه - بَاب: مَنِ اسْـــتَعَانَ بِالضُّعَفَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْحَرْب - عن مُصْعَبِ بْنِ سَـــعْد، قَالَ: رَأَى سَـــعْدٌ بن أَبِي وَقَّاص، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ».

أراد ﷺ بذلك حضَّ ســـعد علـــى التواضع ونفي الزهو على غيره وترك احتقار المسلم في كل حالة.

والسؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن: ما المنزلة التي أراد سعد أَنْ يتميز بها عن إخوانه؟

نجد الجواب شافياً وتتضح لنا الصورة كاملة حين نضـــم الروايات بعضها إلى بعض، ففـــي رواية الإمام عَبْد الرَّزَّاقِ: قال سعد يا رسول الله: أرأيت رجلاً يكون حامية القوم ويدفع عن أصحابه أيكون نصيبه كنصيب غيره؟ فَذَكَرَ الحديث، وعلى هذا فالمراد بالفضل - كما يقول الحافظ ابن حجـــر - إرادة الزيادة من الغنيمة، فأعلمه ﷺ أَنَّ ســـهام المقاتلة ســـواء، فإنْ كان القوي يترجح بفضل شـــجاعته، فإنَّ الضعيف يترجح بفضل دعائه وإخلاصه.

والاســـتفهام في الحديث للتقرير، أي ليس النصر وإدرار الرزق إلا ببركتهم، فأبرزه في صورة الاســـتفهام ليدل على مزيد التقرير والتوبيخ.

الثاني: ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، قالَ: سَـــمِعْتُ رَسُـــولَ الله ﷺ يَقُولُ: «أَبْغُونِي ضُعَفَاءَكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ».

ومعنى «أَبْغُونِـــي» أي اطْلُبُوا رِضَايَ فِي ضُعَفَائِكُمْ، وتقرّبـــوا إِلَيَّ بالتقـــرب إليهم وتفقـــد حالهم وحفظ حقوقهم والإحســـان إليهم قولاً وفعلاً واستنصاراً بهم، فهم الأَحَقُّ بمجالستي وبالقرب مني.

ومعنى إِنَّما تنصرون وترزقون بضعفائكم: أي إِنَّما تُمَكَّنـــون من الانتفاع بما أخرجنا لكـــم وتعانون على

عدوكم ويدفع عنكم البلاء والأذى بسبب وجود ضعفائكم بين أظهركم، أو بسبب رعايتكم لهم أو ببركة دعائهم، وذلك لأنهم أشد إخلاصاً في الدعاء وأكثر خضوعاً في العبادة لجلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا، ومن هنا استدل بعض العلماء على استحباب إخراج الشيوخ والصبيان في صلاة الاستسقاء؛ فالضعيف إذا رأى عجزه وعدم قوته تبرّأ عن الحول والقوة بإخلاص، ورقّ قلبه واستكان لربه وتضرع إليه، فيستجيب الله دعاءه ويحقق له رجاءه، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، بخلاف القوي فإنه يظن أنه إنما يغلب الرجال بقوته، فيكله الله إلى نفسه على قدر عجبه، ويكون ذلك سَبَباً للخذلان.

والمقصود بالضعفاء: مَنْ يكون ضعفه في بدنه (المرض الجسماني)، أو في نفسه (المرض الذهني والنفسي)، أو في حاله (الفقر وقلة ذات اليد)؛ والنصوص تشمل الأنواع الثلاثة، فإنْ قيل بأَنَّ المقصود بالضعفاء هم من يستضعفهم الناس لفقرهم ورثاثتهم، لأنهم هم الذين يستطيعون الدعاء والصلاة، كما في رواية النسائي: «قال ﷺ: إنما ينصُر الله هذه الأمةَ بضعيفها: بدعوتِهم، وصلاتِهم، وإخلاصهم».

فالجواب أَنَّ الدعاء والصلاة والإخلاص قد تتحقق في النوعين الآخرين ليس من المريض نفسه، وإنَّمَا مِمَّنْ يقوم على رعايته، فكم من مريض يتضرع أهله إلى الله وتنكسر له قلوبهم أكثر من صاحب المرض ذاته.

الجمع بين التوكل واليقين وبين الأخذ بالأسباب:

قد يظن القارئ الكريم أَنَّ هناك تعارضاً بين النصوص السابقة والنصوص التي تمدح المؤمن القوي وتأمره بالأخذ بالقوة والاستعداد للأعداء. وعند التأمّل نجد أَنَّه لا تعارض، إذ المراد أَنَّه متى تمكّن المسلم من الأخذ بأسباب القوة المادية وتيسَّرت له، فعليه أنْ يسارع ولا يفرط ولا يقصر.

وقد ورد الجمع بين الأمرين في قول الله عز وجل لنبيه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

والمعنى: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات البدنية والمالية والقلبية، حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك، وقد امتثل أمرَ ربه بأبي هو وأمي ﷺ، فلم يزل دائباً في العبادة بجميع أنواعها حتى أتاه اليقين.

كما جمع النبي الكريم بين الأمرين في قوله: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ.....».

فقوله: «احْرِصْ على ما ينفعك» أمر بكل سبب ديني ودنيوي، بل أمر بالجد والاجتهاد فيه والحرص عليه، نية وهمة، فعلاً وتدبيراً.

وقوله: «واستعن بالله» أمر بالاعتماد التام على الله في جلب المصالح ودفع المضار، مع الثقة التامة بتحقيق ذلك.

أَمَّا إذا لم يتمكَّن المسلم من الجمع بين الأمرين - كأن حبسه المرض في نفسه أو غيره -، فعليه خفض الجناح ورقة القلب والانكسار بمشاهدة جلال الجبار.

والخلاصة أَنَّ قلب العبد وجوارحه في حالة استنفار تام في ذات الله؛ فالجوارح تستفرغ الوسع في الأسباب حتى يحس صاحبها من نفسه أنَّه لا مزيد، والقلب يستجلب رضا الله وعونه وثقته ورجاءه والطمع فيه، فإنْ حدث وقعدت به الأسباب فليتحرك بقلبه إلى الله، فإنَّ الله منجز له ما وعد، وليس هذا فحسب، بل ربما تَفَجَّرَتْ ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

فلنحرص على تذكير الضعفاء وذويهم بهذه المِنَّة، وأن يقبلوا من الله صدقته، وألَّا يستصغروا جهودهم، فدعاؤهم لا يقل تأثيراً في الأعداء عن تأثير المدافع والدبابات.

اللهم أَصْلِحْ لنا شَأْنَنَا كُلَّهُ، ولا تَكِلْنَا إلى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولا إلى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ.

الآن

يمكنك تصفح

البيان

زاوية الأخبار "IPad" Newsstand

Available on the App Store

www.albayan.co.uk

فنُّ الأسئلة لدى الصحابة

■ لافي بن حمود الصاعدي
Lafi855@gmail.com

هناك قولان لصحابيَيْن جليلين يمثّلان منهجاً متكاملاً في فنِّ الأسئلة؛ ذلك أنَّهما اشترطا «التّعقل» قبل السؤال وبعده!

فأوَّلُ هذين القولَيْن هو قول ابن عباس - رضي الله عنهما -: فعَنْ مُغِيرَةَ قَالَ: قِيلَ لابْنِ عَبَّاسٍ كَيْفَ أَصَبْتَ هَذَا الْعِلْمَ؟ قَالَ: «بِلِسَانٍ سَؤُولٍ، وَقَلْبٍ عَقُولٍ». أخرجه الإمام أحمد في كتاب فضائل الصحابة ٢/ ٩٧٠.

إذن المدح في اجتماع هاتين الصفتين (لسانٍ سؤولٍ وقلبٍ عقولٍ)، وبهما يُحَصِّل الإنسان علماً كثيراً، لكنْ إذا انفكَّ أحدهما عن الآخر زالت صفةُ المدح، ونقص من علم الإنسان بقدر ما نقص منهما!

وفي قول ابن عباس هذا ردٌّ على الفلاسفة والملحدين الذين جعلوا إيراد الأسئلة في حدّ ذاته غايةً، فتراهم يحرصون على تكثير الأسئلة، ولا يُجهدون أنفسهم بالبحث عن الجواب عنها!

فإذا وقع الجواب عن أسئلتهم، لم يتعقّلوا المعنى، بل حاولوا أن يشتّتوا الجواب، ويشاغبوا عليه، بأنْ يستنبتوا منه عشرات الأسئلة؛ حتى تضيع قوّة الجواب وتماسكه!

والسببُ في ذلك: أنَّ قلوبَ هؤلاء الملحدين ليس فيها أدنى مسكةٍ من عقلٍ حتى تستقرَّ فيه المعرفة، وليس فيها مثقالُ ذرَّةٍ من يقين حتى تثبت عليه قدمُ العلم، فقلوبهم مليئةٌ بالشكِّ والحيرة والاضطراب والتناقض!

وأمَّا القول الآخر: فهو قولُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: (نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ...) أخرجه مسلم برقم (١٢) في كتاب الإيمان.

فتمنَّى أنسٌ رضي الله عنه أسئلةَ العقلاء؛ لأنَّهم يسألون عمّا ينفعهم، وعمّا يحتاجون إليه، كما أنَّ العقلاء في العادة يسألون عن الأشياء الدقيقة والعميقة، والتي هي فعلاً محلُّ استشكال!

وفي قول أنس هذا ردٌّ على الملحدين والفلاسفة؛ لأنَّ أسئلتهم لا يَسأل عنها العقلاء في العادة، فهي إمَّا أسئلةٌ بدهيَّة لا تحتاج إلى إعمال العقل، أو أسئلةٌ عن كيفيَّة المُغيَّبات ممّا هو خارج عن طاقة العقل البشري والواجب فيه الإيمان والتصديق!

فالبدهيةُ كأسئلتهم عن وجود الله ونحوه ممَّا هو معلومٌ بالفطرة.. والأسئلة عن كيفيَّة المُغيَّبات، كسؤالهم عن كيفيَّات صفات الله، وكيفيات اليوم الآخر، ونحوهما!

فأسئلتهم دون مستوى العقل أو فوق طاقته وقدرته!

صدر حديثاً

مجلة البيان

موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة

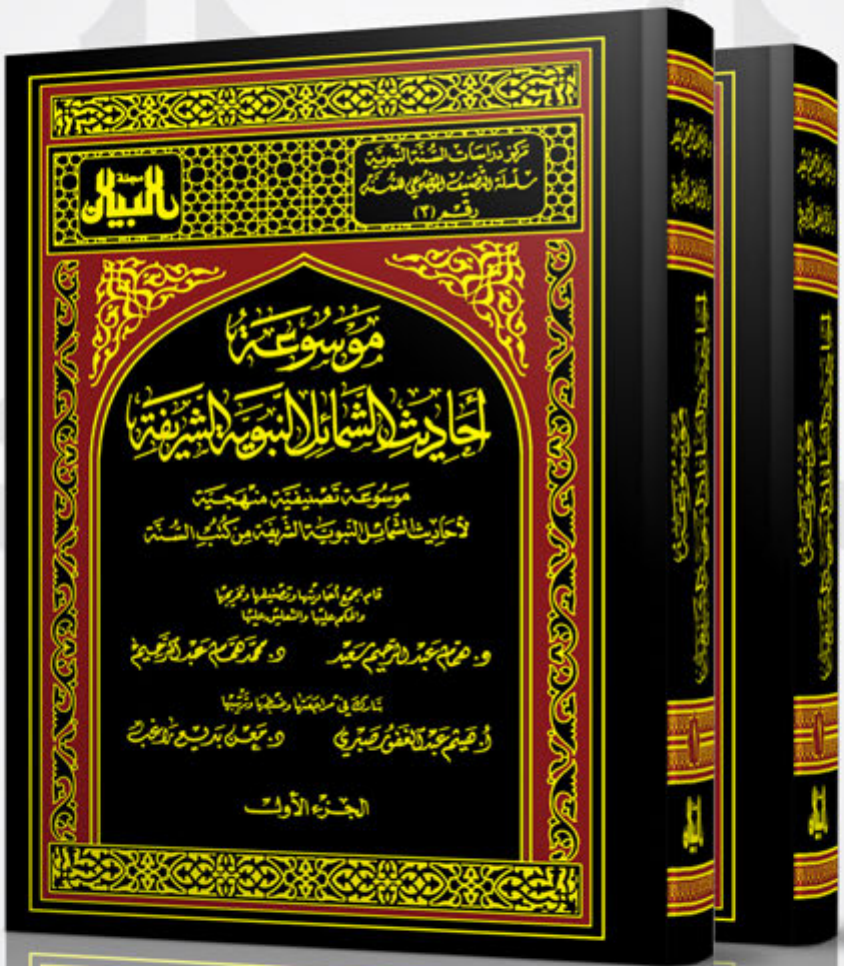

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

لا يستحيون من الإجهار

ونستحي من الإنكار

■ خالد سعيد آل سالم

تسمع في الطريق وعند الإشارات من يرفع صوت الموسيقى الصاخبة والأغاني الماجنة ولا يستحي، ومِنَّا من يكتفي برفع نافذة السيارة وهو بجواره ولا ينصحه حياءً منه أو من الناس.. بل ونسير حول محلات بيع الأغاني وأصواتها الفاجرة مدوية بلا حياء، ونستحي أن نناصح البائع وننكر عليه، وقلْ مثل ذلك في محلات خُصِّصت لبيع آلات الموسيقى وبيع الأطباق الفضائية المنحرفة.

يشرب السم الزعاف الانتحار البطيء (الدخان) ويلوث الهواء النقي ولا يستحي، ونمر من جانبه ونستحي من نصحه، وندخل البقالات ومحلات التموينات ونرى هذا السم يُباع جهراً بل وخانته الأبرز ولا يهمّنا إلا ما نشتريه ولا نناصح، بل ونسير حول محلات خُصِّصت لبيع سموم الجراك والمعسِّل والشيشة أو مقاهيها وكأن الأمر لا يعنينا.

ويناطح المرابون الحرب علناً مع جبار السموات والأرض في بنوكهم الباسقة بين أظهرنا، وننظر إليها، ونسير من جوارها ليلاً ونهاراً، ولا نكلِّف أنفسنا بوقت بسيط لمناصحة مسؤوليهم حول هذه الكبيرة المُهلكة والجريمة الاقتصادية المُعلَنة.

وقسْ على ذلك ما نراه ونسمع به من منكرات مُنكرَة ومعاص فاجرة جاهرة، بل ولا يتمعّر أحدنا وجهه من ذلك خشيةً لله تعالى فضلاً عن أن يُنكر، إلّا ما رحم الله.

بل وما نقرأه في بعض صُحفنا من تطاول بعض الكتَّاب على شرع الله وسنة رسوله ﷺ سامحاً وآذناً لهم محرّرهم بحجة حرية الفكر، ولم يعلم أنها حرية الكفر، ولو كانت هذه الحرية - كما زعموا - صُرفت للإنكار على أمر ما ممنوع رسمياً؛ لمُنع المقال بل وربما فُصل كاتبه ورئيس التحرير من عمله: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

إننا أحوج ما نحتاج إليه في هذا العصر الذي طغى فيه الفساد بكل ألوانه علناً وجهراً، إلى التذكير بسفينة النجاة وشعيرة الإنقاذ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، والتي قد عدَّها بعض أهل العلم الركن السادس من أركان ديننا العظيم.

التذكير بهذه الشعيرة العظيمة والذي تهاون فيها من يعقد عليه الأمل في القيام بها من بعض من ينتسب للتدين في ظاهره ويرى المنكرات أمامه جهاراً بلا حياء وهو مُطرق رأسه حياء، ألا يخشى أن يدخل ضمن الشياطين الخُرس، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، بل ألا يخشى أن يكون له نصيب من هذا الوعيد الشديد من هذه الآية: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].. ألا يرحم نفسه من كان صالحاً في نفسه دون إصلاح ما حوله وما يستطيع، ألا يرحم نفسه من الهلاك والعذاب.. قالت زينب بنت جحش - رضي الله عنها - كما في الصحيحين: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال عليه الصلاة والسلام: نعم؛ إذا كثر الخَبَثُ[1].

فلم تقل رضي الله عنها المصلحون، إنما الصالحون.

وصح عند أبي داود قوله ﷺ: «ما من قوم يُعملُ فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثرُ ممن يعمله، ثم لم يغيروه، إلَّا عمَّهم الله تعالى منه بعقاب»[2].

ألا نخشى الهلاك والعذاب مع أهل الفساد والمنكر بصمتنا وسلبيتنا واكتفائنا بهم أنفسنا، ألم يخبرنا الله جلَّ جلاله بخبر أصحاب القرية وكيف أنجى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وأهلك مع المفسدين الساكتين عن الإنكار كما ذكر ابن عباس - رضي الله عنهما - حيث قال: «إن الطائفة التي لم تنه ولم تعصِ هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهي»[3].. ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٥].

أضف إلى الحرمان الأليم من إجابة دعوة الرحمن الرحيم، فَتحل بالساكت والتارك لهذه الشعيرة الجليلة نكبة ونكبات ويدعو ويجأر بالدعاء ولكن لا يُستجاب له، ألهذا الحد، نعم - والعياذ بالله -.. روى حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قوله: «والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم»[4].

وفوق ذلك تسلّط الأعداء واشتداد البلاء، والتاريخ يشهد على ذلك، وهي سنن الجبَّار جلَّ في علاه لا تتبدل.

ألا نعلم أن الله عز وجل بدأ في كتابه العظيم مبيناً خيرية الأمة بهذه الشعيرة الجليلة قبل الإيمان به: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيرها: (قال قتادة - رحمه الله - بلغنا أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في حَجّة حَجها رأى من الناس سرعة فقرأ هذه الآية ثم قال: ومن سرّه أن يكون من تلك الأمة فليؤدِ شرط الله فيها)

(١) متفق عليه.

(٢) سنن أبي داود برقم ٤٣٣٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٧٤٩.

(٣) انظر تفسير القرطبي عند تفسيره للآيات من ١٦٣ إلى ١٦٥ من سورة الأعراف.

(٤) أخرجه الترمذي برقم ٢١٦٩، وغيره، وقال الألباني: حسن لغيره، وفي صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٣١٣.

رواه ابن جرير. فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمَّهم الله تعالى بقوله: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩][١].

قال سماحة الشيخ العلَّامة عبد العزيز بن باز - رحمه الله - في معرض كلامه عن سبب تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان: (تأمل أيها المسلم الذي يهمّه دينه وصلاح مجتمعه كيف بدأ الله سبحانه في هذه الآية بذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان، مع كون الإيمان شرطاً لصحة جميع العبادات، يتبيَّن لك عِظم شأن هذا الواجب، وأنه سبحانه إنما قدَّم ذكره لما يترتب عليه من الصلاح العام)[٢].

بل وأول وصف وصفه الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات قبل أركان الدين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١]، بل وختم لهم بخاتمة السعادة في الدنيا والآخرة ألا وهي رحمة أرحم الراحمين والتي من تداركته سَعَد وفلح ونجا في الدارين: ﴿أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

وحثَّ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كل مسلم على الإنكار بقدر استطاعته، وفي ذلك ردّ بليغ على من حكر الإنكار على الهيئة أو على سلطة أو صاحب منصب أو بل حتى على متديّن، بل وجَّه عليه الصلاة والسلام قوله لكل مسلم ولو كان فاسقاً: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٣]، قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث السابق في قوله ﷺ (فليغيّره): «فهو أمر إيجابي بإجماع الأمة»، وقال: وقد تتطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدين[٤]، وقال الإمام الجصّاص: (فرض الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه، وبيّنه رسول الله ﷺ في أخبار متواترة عنه فيه، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه)[٥].

إلى هنا أقف في إيراد ما سبق من نصوص أدلة الكتاب والسنة وذكر الإجماع، فالموضوع لا يُقصَد به الجمع والإحاطة بكل النصوص في ذلك؛ فهي كثيرة ومتكاثرة، بل وقد صنَّف العلماء الأجلاء قديماً وحديثاً كتباً ومجلدات في ذلك، إنما قصدت أحث نفسي وإخواني على عِظَم هذا الأمر الذي تساهلنا فيه، ونخشى أن يُصيبنا ما تُوعِّد به من رأى ما لا يرضي الله تعالى ولم يقم بأدنى تغيير.

على أن هذه الشعيرة الجليلة تحفّها ضوابط مهمة وقواعد مقررة كما ذكر أهل العلم، منها (باختصار):

- كون المنكر مما عُلِم نهي الشرع عنه كالمحرمات المشهورة أو ترك للواجبات الظاهرة المعلومة، وأمَّا إن كان من دقائق الأفعال والأقوال التي لا يميز حكمها إلا أهل العلم فيرجع إليهم في ذلك.

- كون المنكر أو الواجب المتروك ظاهراً من غير تجسس، أو يغلب على الظن وقوعه وآثاره واضحة.

- أن لا يترتب على إنكاره مُنكر أكبر منه، أو مفسدة أرجح منه، ولهذا قيل: (ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير مُنكر).

- إذا تمكن تغيير المنكر باليد ولم يترتّب على ذلك مفسدة أقوى منه وجب تغييره، أو كانت سلطته في التغيير أقوى؛ مثل: الأب في منزله، أو المدير في إدارته، أو التاجر في متجره، أو المعلّم في فصله، أو الموظف في مكتبه.

- إن لم يتمكَّن من تغيير المنكر باليد فيُنتقل للمرتبة الثانية وهي الوعظ باللسان بالرفق والحكمة، وإن استدعى الأمر فبالحزم إذا كان في موعظة.

- وأما التغيير بالقلب (بمعنى لم يستطع التغيير باللسان والبيان لكون الإنكار يترتَّب عليه مفسدة أرجح من المنكر أو عجز عن ذلك لفوات وقته أو لتكاسله وإهماله)؛ فالتغيير بالقلب يجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله؛ لأنه عبارة عن ضيق قلبه من المنكر، ومن لم يتغيّر قلبه من المنكر ويضيق منه فليس بمؤمن كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «وذلك

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٠٥.

(٢) من إملاءات سماحة الشيخ - رحمه الله -.. انظر الموقع الرسمي لسماحته على هذا الرابط: www.binbaz.org.sa.

(٣) صحيح مسلم برقم ٤٩.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/٢٢.

(٥) أحكام القرآن للجصَّاص ٤/١٥٤.

أدنى – أو – أضعف الإيمان»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[2]، وقيل لابن مسعود – رضي الله عنه – من ميتُ الأحياء؟ فقال: «الذي لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً»[3].

– الأمر بالمعروف يكون واجباً إن أُمر بواجب، ويكون مُستحباً إن أُمر بمُستحب، والنهي عن المنكر يكون واجباً إن نُهي عن محرم، ويكون مُستحباً إن نُهي عن مكروه[4].

– ومما يستدعي ذكره التنبيه إلى بعض الشبه التي قد تُعرَض على فريق من الناس من مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقد يترك بعض الخيرين المنكر بحجة تأويل هذه الآية تأويلاً خاطئاً، بينما قد جلَّاها الصديق أبو بكر – رضي الله عنه – في خطبته؛ حيث قال: (إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يُغيّروه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب منه»)[5].

– ومن مثل حديث: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[6]. فجواب من يشتبه عليه ذلك في الحديث ذاته، إذ إنه لم يعاقب على قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما لتركه ما أمر الله به وارتكاب ما نهى الله عنه.

– ومن مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، فهي لا تعني: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة التقصير كما يستمسك بذلك من هوَ مُفرِّط في بعض ما أمر الله به أو ارتكاب ما نُهي عنه، إنما كما ذكر أهل العلم وأنت ترشد الناس وتوجّههم فلا تهمل نفسك، وليس في الآية دلالة على ترك النصح والتوجيه والإنكار.

– ومن مثل ما يشيع عند البعض الذي تأثَّر ببعض المفاهيم الغربية من دعوى: أن الأمر والنهي تَدخّل في الحرية والشؤون الخاصة أو الشخصية، وهذه الشبهة الواهية تردّها بسهولة النصوص المتظافرة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وإنما يكون التدخل في الشؤون الخاصة إذا كان المرء قد أغلق على نفسه الباب في بيته من دون قرائن تدلّ على ارتكابه المنكرات أو تركه الواجبات.

– ويُقاس على هذه الشبهات التي يلبّس إبليس بها البعض أي شبهة تُعرض من خلال نص أو أثر لا تُفهَم دلالته، فالواجب حينئذٍ عرضها على أهل العلم لتجليتها، لا التسليم لها لتبرير التقاعس والتكاسل عن القيام بهذه الشعيرة الجليلة والفريضة النبيلة.

– وكذلك.. إن مما يُستحسن الإشارة إليه حتى لا يدب الفتور إلى نفس من يرى المنكر ولا يغيره:

– أن يقوي إيمانه دوماً بالتقرب إلى الله عز وجل بالطاعات والابتعاد عن المنهيات حتى لا يكون إنكاره فقط تغير قلبه، كما في الحديث: «وذلك أضعف الإيمان». ولا يعني ذلك أن لا يخطئ المصلح أو يكون كاملاً تماماً أو لا ينكر إلَّا من كان على درجة من التدين، لا ليس المراد، فقد رُوي حديث «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله»[7]، وإن كان رُوي بسند ضعيف لكن يُستأنس به في ذلك، ولكن في المقابل لا يعني التساهل في الوقوع في الآثام أو الزهد في شيء من الواجبات بحجة أن الإنسان ليس بكامل، إنما يسدد المصلح نفسه ويقارب للخير ما أمكنه، فإن وقع في زلة أو ترك واجباً فليجاهد نفسه ولا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعليلاً لذلك.

– ومما يعين المُصلح على إصلاحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر أن يشوِّق نفسه للفضائل التي تترتب على نبل مهمته الشريفة، وبالمقابل يخوِّف نفسه ويردعها من العقوبات المُهلكة التي تنتظره عندما يترك ذلك.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه مسلم برقم ٥٠، وأخرجه غيره من أئمة الحديث.
(٣) أخرجه مسلم، جامع الأصول ١٠/ ١٢١.
(٤) انظر تلك الضوابط والقواعد من رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة لـ: د. عبد العزيز المسعودي، وانظر مجموع فتاوى لابن تيمية ٢٨/ ١٢٧–٣٢. (وقد سيقت باختصار وتصرّف).
(٥) انظر تفسير البغوي للآية ١٠٥ من سورة المائدة.
(٦) أخرجه البخاري برقم ٣٣٩٧، ومسلم برقم ٣٩٨٩.
(٧) مجمع الزوائد ٧/ ٢٨٠.

– وليعلم علم اليقين أن عِظَم فضيلة الـمُصلح لا يقارن بالصالح لنفسه فحسب، يقول فضيلة الشيخ عبد العزيز الطريفي – وفقه الله –: (مصلح واحد أحب إلى الله من آلاف الصالحين، لأن المصلح يحمي الله به أُمة، والصالح يكتفي بحماية نفسه). وقال أيضاً مُبيِّناً جلالة أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (الأمر بالمعروف يجلب الخير، والنهي عن المنكر يدفع الشر، وهما كفّتا ميزان العدل، فإن نقص أحدهما اختل الآخر وظهر الظلم في الدين والدنيا).

– وأخيراً.. فلنعوّد أنفسنا – فالنفس على ما عوّدتها عليه – على إحياء هذه الشعيرة الجليلة والمهمة النبيلة، خاصةً في عصرنا الذي جاهر فيه العصاة بمعاصيهم وفسقهم عندما سكتنا عنهم، بل وخشي البعض أو استحيا منهم أو من الناس، وقد قال حبيبنا صلوات الله عليه: «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقَّن الله عبداً حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس»[2]. فلا تخف أخي منهم إنما هم بشر مثلك لا يضرونك إلا بإذن خالقهم، وعلّق قلبك بالذي بيده ملكوت السموات والأرض، فإذا رأيت صاحب المنكر الـمُجاهِر الذي لم يستحي من خالقه ولا من خلقه، فِعظه بينك وبينه برفق، وذكّره بقول خير الخلق صلوات الله وسلامه عليه: «كل أُمتي مُعافى إلَّا المجاهرين»[3]، ووضّح له معنى ذلك – كما ذكر أهل العلم – أي كل مسلم أقرب إلى أن يعفو الله عن ذنبه إلّا المجاهر بذنبه وفسقه.

– وما ذلك إلّا لأنها استخفاف بأوامر الله عز وجل ونواهيه، كما أنها تؤدي إلى اعتياد القبائح واستمرائها وكأنها أمور عادية لا شيء فيها، بل وهي بمثابة دعوة للغير إلى ارتكاب المعاصي وإشاعة الفساد ونشر المنكرات، والمجاهر بذلك لا يخلو من سوء الخُلق والوقاحة وقلة الأدب مع قسوة قلبه واستحكام غفلته.

فاعلم أيها الناصح الآمر بالمعروف والخير والناهي عن المنكر والشر أنك العزيز بطاعة مولاك وقيامك بهذه الفريضة الجليلة، فلا تذلّ نفسك وتأمر وتنهى بمسكنة واستحياء، ولا يعني ذلك الغلظة والفظاظة، إنما يعني الاعتزاز بما أكرمك أكرم الأكرمين به بأن جعلك الطائع الذي توعظه وليس هو الذي يوعظك.

– ولنتذكر كذلك ختاماً أن وسائل ذلك متعددة خاصةً في ظِل ثورة تقنية التواصل الاجتماعي من رسائل جوال وواتس آب وفيس بوك وتويتر وما جدّ من الحديث منها، فليكن لنا دور في إحياء الخير فيها وإنكار ما يمكن إنكاره من صور فاتنة أو مقاطع ماجنة أو معازف فاسقة أو أخبار خاطئة أو أحاديث باطلة أو بدع مُستحسنة، مع سؤال أهل العلم عمَّا يُشكل علينا، كما يُنبّه على وسيلة البرقية الهاتفية ٩٦٩ عن طريق الهاتف الثابت أو الجوال للإرسال لولاة الأمر أو المسؤولين في دعوتهم للخير وتنبيههم لرفع مُنكر حادث.

وقبل ذلك وبعده لا نهمل عِظَم أهمية الاستعانة بالمعين جلَّ وعلا وكثرة دعائه بأن يصلح حال المجتمعات، وأن يهدي ضال المسلمين والناس، وأن يعيننا على حسن القيام بنصحهم وتوجيههم وحسن الإنكار كما يحب سبحانه وتعالى ويرضى.

مع أهمية تحميس أنفسنا بين فترة وأخرى بالاطلاع على سير المصلحين وقائدي سفينة النجاة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وعمق آثار صلاحهم على مجتمعاتهم وعِظَم أجورهم عند ربهم جل وعلا.

(١) أخرجه ابن ماجه برقم ٤٠٠٧، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم ٣٢٣٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم ٤٠١٧، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم ٣٢٤٤.

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له برقم ٦٠٦٩، ومسلم برقم ٢٩٩٠.

نماء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظما.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج وتصميم
BN
www.BNet.ws

اقتران الخوف والجوع في القرآن

حكم وأسرار

د. توفيق علي زيادي

مَنْ تدبر في آي القرآن وجد تلازماً وثيقاً في عدد من آياته بين الأمن ورغد العيش من جهة، وبين الخوف والجوع من جهة أخرى، وقد قرن الله سبحانه وتعالى بينهما، وهما نعمتان من أعظم النعم التي تشبع حاجتين أساسيتين من حاجات البشر، وهما:

١ - الكفاية من العيش.

٢ - والأمن من الخوف.

قال تعالى ممتناً على قريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وشر ما يبتلى به مجتمع أن يُسلب هاتين النعمتين، فيصاب بالجوع والخوف، وهما من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى[١].

ومن هنا نفهم أن عدم توافر الأمن الغذائي هو سبب عدم توافر الأمن الاجتماعي في معظم المجتمعات.

بل إن الظالمين المستبدين إذا أرادوا أن يُمعِنُوا في عذاب شعب سلبوا منه هاتين النعمتين، معتقدين أنهم بذلك يستطيعون أن يسيطروا على شعوبهم، وأنَّى لهم ذلك، فما قامت ثورة من الثورات إلا بسبب فقد إحدى هاتين النعمتين أو كلاهما، وما ثورة الخبز، وثورة الجوع، وثورة تونس... وغيرها؛ إلا بسبب ذلك.

وقد جعل الإسلام ضمان الاحتياجات الغذائية أو ما يُعرف بحد الكفاية (الأمن الغذائي)؛ من واجبات المجتمع والدولة نحو أفرادها الذين لا يملكون الاحتياجات الأساسية، حتى يستقيم أمر الدنيا والدين.. ويوضح ذلك الإمام الغزالي بقوله: «فالمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين؛ لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط»[٢].

وقد حافظ الخلفاء من بعد رسول الله ﷺ على تأمين الاحتياجات الغذائية الضرورية، وعُرف ذلك في عهد مروان بن الحكم بطعام الجار، حيث يعطى للمحتاجين في شكل صكوك يستلمونه من بيت المال، وكان بيت المال فيه مخازن للطعام تصرف للمحتاجين وقت الحاجة.

ومن هنا يُفهم أن توفير الأمن الغذائي يعد المدخل لتحقيق الأمن الاجتماعي. وإن التزام المجتمع، ممثلاً في الدولة، بواجبه نحو أفراده بضمان الحد الأدنى من الأمن الغذائي أو ما يعرف بحد الكفاف، هو الحد الأدنى مما يجب أن يلتزم به من العقد الاجتماعي بينه وبين الأفراد، والشرط الأساسي لالتزام الأفراد بذلك العقد والتقيد بما فيه من قواعد الضبط الاجتماعي. وفي حالة عجز المجتمع عن توفير الأمن الغذائي والاحتياجات الغذائية الضرورية لأي سبب من الأسباب، يجد

(١) السعدي: ٩٣٥.

(٢) العيادي: ص ٣٠٥.

الأفراد أنفسهم في حلٍّ من الالتزام بذلك العقد الاجتماعي وما يتضمنه من قواعد لتحقيق الضبط والأمن الاجتماعي، ولا أدل على ذلك من أن الإسلام يبيح بعض المحظورات ويعطل بعض أحكام الشريعة الإسلامية في حق الجائع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥]. وعندما انتشرت المجاعة وتدهور الأمن الغذائي واشتدت حاجة الناس للطعام في عام الرمادة، لم يطبق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حد السرقة.

بل إن الرسول الكريم كان يستعيذ من الجوع، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ[١].

أَيْ بِئْسَ الصَّحَاب الْجُوعُ الَّذِي يَمْنَعُك مِنْ وَظَائِف الْعِبَادَات كَالسُّجُودِ وَالرُّكُوعِ. وَقَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْجُوع يُضْعِفُ الْقُوَى وَيُشَوِّشُ الدِّمَاغ فَيُثِيرُ أَفْكَارًا رَدِيَّةً وَخَيَّالَات فَاسِدَة، فَيُخِلُّ بِوَظَائِف الْعِبَادَات وَالْمُرَاقَبَات، وَلِذَلِكَ خَصَّ بِالضَّجِيعِ الَّذِي يُلَازِمُهُ لَيْلًا[٢].

اقتران الجوع والخوف في الحديث النبوي

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا[٣].

أي: من جمع الله له بين عافية بدنه وأمن قلبه حيث توجه وكفاف عيشه بقوت يومه وسلامة أهله، فقد جمع الله له جميع النعم التي من ملك الدنيا لم يحصل على غيرها، فينبغي أن لا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها بأن يصرفها في طاعة المنعم لا في معصية ولا يفتر عن ذكره، فكأنما أعطي الدنيا بأسرها[٤].

فيجب على كل فرد أو شعب تتوافر له هاتان النعمتان أن يشكر ربه عليهما، فالشكر حافظ للنعم.

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَحَمَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا، قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ يَشْرُطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ، ثُمَّ يَرْجِعُ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: يَا حُذَيْفَةُ، فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لاَ تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا، وَلاَ نَارًا وَلاَ بِنَاءً، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللَّهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلاَ تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلاَ يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلاَثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلاَّ وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلاَ عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لاَ تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي، ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ، قَالَ حُذَيْفَةُ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رِجْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا إِلَى بِلاَدِهِمْ[٥].

فانظر إلى هذا الحديث وما يدل عليه من أن شدة الجوع وشدة الخوف كانتا سبباً من أسباب ضعف الاستجابة لندب الرسول ﷺ الصحابة رضي الله عنهم للإتيان بخبر القوم مع توافر ضمانات العودة ودخول الجنة ورفقة الحبيب المصطفى ﷺ.

فلا تنتظر من شعب سُلبَت منه هاتان النعمتان أن يقوم بنهضة أو إقالة عثرة، ما لم يقم بنفسه بانتزاع هاتين النعمتين ممن سلبهما منه، مضحياً في سبيل ذلك بالغالي والنفيس، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وكما قال جلَّ في علاه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) سنن أبي داود: باب: في الاستعاذة، (١٥٤٩)، وقال الألباني: حديث صحيح.
(٢) عون المعبود: ٤/ ٤٠٦.
(٣) سنن ابن ماجه: الزهد، (٤١٤١)، وقال الألباني: حديث حسن.
(٤) فيض القدير: ٦/ ٨٨.
(٥) مسند أحمد: حديث حذيفة بن اليمان، (٢٣٣٨٢). تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

[نص شعري]

انتفاضة

فهد بن علي العبودي

بعدما فرغتُ من قراءة قصة (بنات العرب في إسرائيل(*))، تداعَتْ كلمات هذه القصيدة:

تفصَّدي يا شرايينَ الدمِ العربي ... واستنزفي ما تَبَقّى منه والتهبي
فإنما الدمُ زادُ المُصطلي غضبًا ... (إنْ سالَ طابَ وإن لم يَجْرِ لم يَطبِ)
لعل قطرةَ نزفٍ منكِ حانقة ... أن تبعث الروحَ في وجداننا الخربِ
لم تبقَ سؤرةُ حسٍّ في ضمائرنا ... كأنما ثملتْ من خمرة الوَصَبِ
يا أمة مَجَّ سمْعُ الدهر سيرتها ... فلم تعُدْ تستبيه نشوة الطربِ
قد كان يطرب من تصهالها حِقبًا ... لم يبق منه سوى الأصداء في الحِقبِ
ما للأعاريب وارَوا هامَ نخوتهمْ ... في حمأة الذل فاشتاروا جنى العطبِ؟
لو أنها دُفِنتْ في منبتٍ خَصِبٍ ... لأثمرتْ حُممًا من وابل الغضبِ
يا نخوة العُرْبِ رانتْ صفحتاكِ قذىً ... فلتنفضي رهَجَ السُّوأى وتنتصبي
لا تدفعي بضجيج الشجْب صولتهمْ ... (فالعزمُ أصدقُ أنباءً من الصخبِ)
يَستعْذِبُ الحرُّ صابَ الموتِ في شرفٍ ... وليس يَعذبُ شهدُ العيش إنْ يُشَبِ

(*) من كتاب (قصص من الحياة) للشيخ علي الطنطاوي – رحمه الله –.

[المسلمون.. والعالم]

تطور فكرة تقسيم المشرق العربي
د. بشير زين العابدين

ما وراء التوجه الصهيوني لفرض السيادة اليهودية على المسجد الأقصى؟
د. صالح النعامي

مكاسب إقليمية محتملة بين ثنايا «الغَزَل الإيراني»
محمد سليمان الزواوي

روحاني ومعاناة أهل السنة في إيران
صباح الموسوي

الحراك الجنوبي وحركة الحوثي.. تقارب المصالح وتباعد الأيديولوجيات
أحمد الصباحي

حصار غزة يدخل عامه السادس
أحمد أبو دقة

مرصد الأحداث
عمرو عبد البديع

تطور فكرة تقسيم المشرق العربي

في مراكز الفكر الغربية (٢٠٠١-٢٠١٣)

ملخص تنفيذي

■ د. بشير زين العابدين(*)
zein73@hotmail.com

تتناول هذه الدراسة أهم ما نشرته مراكز الفكر الغربية حول مشاريع التقسيم وإعادة رسم الخريطة السياسية كحل للأزمات التي تواجهها الكيانات الجمهورية في المشرق العربي، ويمكن تلمس تطور مفاهيم التقسيم ومقترحات إعادة رسم خريطة المنطقة من خلال ثلاث مراحل رئيسة، هي:

(*) باحث وأكاديمي سوري.

١ ظهور فكرة التقسيم من خلال التسويق لمشاريع الحكم الفيدرالي ودعم القوى المجتمعية خلال الفترة ٢٠٠١-٢٠٠٦، وذلك بالتزامن مع تركز الاستراتيجية الغربية في التعامل مع المنطقة العربية على دعامتي «دعم الديمقراطية» و«تمكين الأقليات»، حيث تقدمت العديد من هذه المراكز بمجموعة خرائط كان أبرزها: دراسة «حدود الدم» التي نشرها النائب الأسبق لرئيس هيئة الأركان الأمريكي رالف بيترز في مجلة القوات المسلحة الأمريكية وتسببت بإثارة لغط كبير في المنطقة العربية.

٢ دعوة عديد من مراكز البحث الغربية إلى دعم مطالب المعارضة الراديكالية بالانفصال السياسي والحكم الذاتي في المرحلة ٢٠٠٧-٢٠١٠، والتي برزت فيها مظاهر التعاون بين المؤسسات الرسمية الغربية وبعض الجماعات المتطرفة التي أخذت تدعو إلى الانفصال السياسي والاستقلال الإداري، ما شجع بعض الباحثين الغربيين للتقدم بأطروحات أكثر جرأة فيما يتعلق بإعادة رسم خريطة المشرق العربي على أسس إثنية ومذهبية.

٣ ظهور مفهوم «التجزئة داخل الحدود» في مرحلة الثورات الشعبية الراهنة (٢٠١١-٢٠١٣)، حيث تبنّت العديد من مراكز البحث الغربية أطروحات جديدة تتضمن الدعوة إلى تأسيس كيانات فيدرالية أو إلى إعادة فرز القوى المجتمعية وفق معادلة تفتيتية تقوم على المحاصصة السياسية للقوى المجتمعية داخل إطار الدولة.

وبالنظر إلى ضحالة بعض الأطروحات الغربية، وعجز كثير من الباحثين الغربيين عن فهم طبيعة المجتمعات الشرقية؛ فقد دعت الدراسة إلى ضرورة مبادرة مراكز البحث العربية لتقديم أطروحات جادة للتعامل مع الأزمات السياسية والاجتماعية، وملء الفراغ الثقافي في الساحة العربية عبر طرح رؤى استراتيجية ناضجة لمستقبل الهوية السياسية للكيانات العربية في هذه المرحلة الحرجة من التحول البنيوي.

تطور فكرة تقسيم المشرق العربي في مراكز الفكر الغربية (٢٠٠١-٢٠١٣)

تناولت العديد من المصنفات الحديثة ظاهرة تأثير الأزمات الداخلية في بلدان العالم العربي على الأمن الدولي، حيث مثلت هشاشة البنى التحتية للجمهوريات العربية الحديثة منذ تأسيسها نموذجاً لحالة انعدام الاستقرار الذي يمكن أن يؤثر على منظومات الأمن الإقليمي.

وتأتي هشاشة البنى التحتية لهذه الجمهوريات كنتيجة حتمية لانعدام التوازن بين مفهومي «الدولة» (state) و«الأمة» (nation)، خاصة أن معظم الجمهوريات العربية قد نشأت على أساس صفقات بين قوى استعمارية في مطلع القرن العشرين دون مراعاة لمفهوم «الدولة القومية» (nation state)، ما أدى إلى خضوع هذه الدول للأنظمة العسكرية الشمولية بعد خروج المستعمر، واندلاع النزاعات الحدودية، وتدهور العلاقة بين الدولة ومختلف فئات المجتمع إثر ارتكاز السلطة على قواعد ضيقة من الفئات المستفيدة[1].

ونظراً لضعف مؤسسات الإدارة وأجهزة الحكم في هذه الدول، فإن المهددات التي تواجهها غالباً ما تأتي من عوامل داخلية، وذلك نتيجة عجزها عن تشكيل علاقة متوازنة بين السلطة والمجتمع، ثم تأتي عوامل: الضعف الاقتصادي، وسوء توزيع الثروة، والتوتر بين مختلف المجموعات الإثنية والمذهبية داخل المجتمع كعوامل تنخر في جسد هذه الدول، وتمنعها من تشكيل نظام أمني متوازن.

وبناء على هذه المعطيات فقد ذهب بعض المنظرين الغربيين إلى أن الخلافات الحدودية وتدهور العلاقة بين المذاهب والإثنيات داخل الدولة، يمكن أن تهدد منظومات الأمن الدولية برمتها، ما يستدعي التدخل الخارجي لمعالجة بؤر التوتر المحلية لبعض الدول الشرقية بهدف درء هذه المخاطر، خاصة أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ قد دفعت بالمجتمع الدولي للاعتراف بتنامي خطر الجماعات المتطرفة العابرة للحدود، وإمكانية تعرض طرق الإمداد ومصادر الطاقة للتهديد من قبل جماعات راديكالية تتخذ من بعض الدول الهشة قواعد ارتكاز لها[2].

(1) Mohammed Ayoob, Regional Security in the Third World (Colorado: Westview Press, 1986), 6.

(2) Benjamin Miller, States, Nations, and the Great Powers (Cambridge Studies in International Relations, 2007), 1215-.

وساعد بروز القوى الفاعلة خارج إطار الدول (non state actors) على ترسيخ الارتباط بين الأمن الإقليمي والأمن الدولي؛ حيث مثلت حادثة تفجير برجي التجارة العالميين نقطة تحول في تبني واشنطن استراتيجية أمنية جديدة لمواجهة الفكر المتطرف الذي انتشر في بعض دول الشرق الأوسط، وذلك من خلال العمل على توظيف القوى المجتمعية داخل هذه الدول لفرض تغييرات في بنية مؤسسات الإدارة والحكم.

ويمكن تلمس تلك التوجهات من خلال رصد الدراسات التي نشرها باحثون مقربون من دوائر اتخاذ القرار السياسي في الغرب، وعلى الرغم من عدم تبنّي الحكومات الغربية أياً من هذه الدراسات؛ إلا أن المشاريع التي تقدمت بها معاهد الفكر لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط قد عُرضت على كبار المسؤولين في الحكومات الغربية المتعاقبة منذ عام ٢٠٠١ وحظيت باهتمامهم، كما أنها نوقشت على مستوى مؤسسات التخطيط الاستراتيجي وصنع القرار، ويمكن تفصيل تطور فكرة تقسيم المنطقة العربية فيما يأتي:

تطور فكرة التقسيم والتسويق لمشاريع الحكم الفيدرالي عبر دعم القوى المجتمعية (٢٠٠١-٢٠٠٦)

ارتكزت الأطروحات المتعلقة بضرورة إعادة رسم خريطة المشرق العربي على نقد مخرجات معاهدة «سايكس بيكو» (١٩١٦)، والتي نصت على منح فرنسا كلاً من: الموصل وسورية ولبنان، ومنح بريطانيا جنوب بلاد الشام وصولاً إلى بغداد والبصرة، وجاءت بعد ذلك معاهدة «سيفر» (١٩٢٠) لإقرار الحدود التي تم ترسيمها من قبل، ومن ثم معاهدة «سان ريمون» في العام نفسه، والتي نصت على وضع سورية والعراق تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني تباعاً.

وعلى إثر انعتاق الجمهوريات العربية من الانتداب الأوروبي؛ انتشرت ظاهرة الانقلابات العسكرية والحكم الشمولي، فيما اندلعت الصراعات الحدودية بين هذه الدول نظراً لعدم رضاها بالتركة التي توافقت عليها الدول الغربية لاقتسام مناطق النفوذ فيما بينها، وواجهت هذه الدول مشاكل كبيرة في ترسيخ مفهوم المواطنة ضمن إطار الدولة، وذلك في مقابل انتشار الأطروحات الأممية والإثنية، وأخذت العديد من القوى المجتمعية تعزز وجودها السياسي والإعلامي خارج إطار الدولة إثر انحسار المد القومي، وتنامي تيارات التطرف الديني، خاصة في العراق وسورية ودول الخليج العربي.

وكان أول من طرح فكرة تغيير البنية الجيو-سياسية للشرق الأوسط في مطلع الألفية الثالثة؛ الضابط المتقاعد رالف بيترز الذي نشر دراسة ذكر فيها أن الحرب على الإرهاب ستبقى ناقصة ما لم تتم معالجة «قضايا الإرهاب الأصولي والتخريب والكراهية الصادرة من الدول المحافظة التي لعبت دوراً في تقويض الأنظمة العلمانية ونشر التطرف في العالم الإسلامي وإعادة حقوق الإنسان إلى الوراء»[1].

وفي هذه الأثناء بدأت الصحافة ومراكز البحث الغربية المقربة تتقدم بأطروحات لإعادة رسم خريطة المنطقة العربية كحل لمواجهة التشدد الديني وإمكانية استخدام القوة العسكرية لتحقيق ذلك؛ ففي ورقة مقدمة إلى وزارة الدفاع الأمريكية في شهر يونيو ٢٠٠٢، دعا الخبير الاستراتيجي بمؤسسة «راند»، لوران موريس، الإدارة الأمريكية إلى تبني حلول عسكرية متشددة إذا فشلت جهود الإصلاح في المنطقة العربية[2].

وفي الفترة ذاتها؛ شارك القيادي في أوساط المحافظين الجدد، وليام كريستول، في مؤتمر بإيطاليا (يونيو ٢٠٠٢)، وتحدث في مداخلته عن وجود أجندة أمريكية ستبدأ بالحرب على العراق وتنتهي «بإسقاط الأنظمة الملكية في الخليج العربي»، وذكرت صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية أن المستمعين من النخبة الأوروبية قد صعقوا من صراحة كريستول وأسلوبه المباشر في الطرح[3].

وتزامنت تلك الأطروحات المتطرفة مع نشر تقرير تقدم به مؤسس معهد «هدسون» للدراسات الاستراتيجية، ماكس سنجر، لوزارة الدفاع الأمريكية (أغسطس ٢٠٠٢)، يتلخص في الدعوة

(1) Ralph Peters, "The Saudi Threat," Wall Street Journal, (4th January 2002).

(2) A briefing at the Pentagon to the Defense Policy Board by Rand Corporation, prepared by Laurent Murawice, on 10th July 2002.

(3) Richard Cohen, "Kristol Unwelcome Message," The Washington Post, 11th June 2002.

إلى إسقاط الأنظمة الملكية ودعم المعارضة في الخارج لإنشاء جمهورية مستقلة في شرقي شبه الجزيرة العربية، وذكر المتحدث باسم البنتاغون اللفتنانت مايكل هوم أن سنجر قد اجتمع بأندرو مارشال، وهو أحد المقربين من وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، ودار الحديث بينهما حول إمكانية إنشاء كيان جديد على أسس طائفية في الخليج العربي[١].

وفي الفترة التي ظهرت فيها التقارير الداعية إلى إعادة رسم الخريطة العربية عام ٢٠٠٢؛ كانت الإدارة الأمريكية منهمكة في إعداد خططها لغزو العراق، الذي تأسس فيه منذ عام ٢٠٠٣ نظام سياسي يقوم على محاصصة إثنية-طائفية شبه رسمية، وأصبح الانقسام العرقي والطائفي في المحافظات العراقية أمراً لا يمكن تجاهله على أرض الواقع.

ومنذ ذلك الحين بدأت تتضح ملامح الاستراتيجية الأمريكية الجديدة للشرق الأوسط، والتي ارتكزت على دعامتي «دعم الديمقراطية» و«تمكين الأقليات»، ابتداء من العراق وانتهاء بدول الخليج العربية؛ ففي شهر مارس ٢٠٠٣ نشر الرئيس الفخري لمجلس العلاقات الخارجية الأمريكي، ليسلي غليب، مقالاً بعنوان: «العراق.. حل الدول الثلاث»، دعا فيه إلى تقسيم العراق إلى ثلاث دول على أساس عرقي وطائفي، وقد تبنّت لجنة بيكر هذا المقترح الذي أيده أبرز أعضاء المجلس، ودعا غليب في مقاله إلى إنشاء دولة جديدة على أسس مذهبية في الخليج العربي بعد إنجاز مشروع تقسيم العراق[٢].

وفي شهر أبريل ٢٠٠٦، نشر معهد «غلوبال ريسيرتش» الكندي مقالاً لغاري هلبرت تحدث فيه عن وجود مخططات أمريكية لتقسيم منطقة الشرق الأوسط على أسس إثنية وطائفية. وأكدت الدراسة أن نائب الرئيس الأسبق ديك تشيني ونائب وزير الدفاع الأسبق بول ولفويتز، كانا من أبرز المؤيدين لفكرة التقسيم. كما نشر المعهد تقريراً آخر في شهر نوفمبر من العام نفسه تحدث الكاتب فيه عن إمكانية أن تشهد المرحلة المقبلة بذل جهود استخباراتية لتشجيع الأقليات في المنطقة للمطالبة بكيانات سياسية مستقلة[٣].

وتزامن صدور هذا المقال المثير للجدل مع قيام مركز «ستراتفور» للدراسات الجيوسياسية بنشر تقرير يشير إلى اعتزام الإدارة الأمريكية تقسيم العراق إلى ثلاث دول؛ بحيث يكون القسم الأول وسط العراق وعاصمته بغداد، والقسم الثاني في إقليم «كردستان العراق» الذي يمكن أن يتحول إلى دولة تتمتع بحكم ذاتي، أما القسم الثالث فيقع جنوب العراق وعاصمته البصرة ويقوم على أسس مذهبية بحتة، وورد الحديث عن إمكانية أن يضم القسم الثالث أجزاء من الخليج العربي، وأكد التقرير أن هذه المقترحات قد طرحت للنقاش في لندن مع بعض الساسة العراقيين في شهر يوليو ٢٠٠٥[٤].

وفي شهر يوليو ٢٠٠٦ نشرت مجلة القوات المسلحة الأمريكية دراسة للنائب الأسبق لرئيس هيئة الأركان الأمريكي، رالف بيترز، دعا فيها إلى إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، وعلى الرغم من أن هذه الخطة لم تعتمد من قبل الإدارة الأمريكية، إلا أنها عُرضت للنقاش في كلية حلف شمال الأطلسي، وتم تداولها في دوائر رسمية عدة بالولايات المتحدة الأمريكية، وأكد أحد الباحثين في معهد الدراسات الدولية وجود خرائط أخرى لا تقل أهمية عن خريطة بيترز، إلا أنها لم تتسرب إلى الصحافة، وقد أدى نشر هذه الخريطة ومناقشتها في أروقة الناتو إلى احتجاج رئيس هيئة الأركان التركي لدى نظيره الأمريكي من التجاوز الخطير المتمثل في الدعوة إلى إنشاء دولة كردية على حساب تركيا[٥].

الدعوة إلى دعم مطالب المعارضة الراديكالية بالانفصال السياسي والحكم الذاتي (٢٠٠٧-٢٠١٠)

بحلول عام ٢٠٠٧، بدأت تظهر ملامح تفاعل القوى المجتمعية الأكثر تشدداً في المشرق العربي مع دعوات التقسيم الغربية؛ وبدا ذلك جلياً في تعالي أصوات الجماعات المتطرفة للمطالبة بالانفصال السياسي، حيث نشرت مجلة «ميدل إيست بوليسي» في عددها الصادر بتاريخ ٢٢ يونيو ٢٠٠٧ تقريراً يؤكد أن الأنظمة العربية باتت تشعر بالقلق من تنامي نشاط التنظيمات المتطرفة المرتبطة بإيران، ما دفع بعدد من القادة والزعماء العرب لتحذير الدول الغربية من مخاطر دعم هذه الجماعات التي تهدد حالة السلم الاجتماعي وتتسبب في شرخ خطير في العلاقات الإقليمية[٦].

(1) USA Today and the Financial Times, 21st August 2002.
(2) L. Glib, President of the Foreign Affairs Committee (2004) "Iraq: Three States Solution," New York Times, 10th March 2004.
(3) Mahdi Darius Nazemroaya, "Plans for Redrawing the Middle East," (Global Research, 18th November 2006).
(4) Stratfor Center for Geopolitical Studies, April 2006.
(5) Ralph Peters, "Blood Borders: How a Better Middle East Look," Armed Forces Journal, (July 2006).
(6) Maximilian Terhalle, «Are the Shia Rising?» Middle East Policy, (June 22nd 2007).

وفي مطلع عـــام ٢٠٠٨ صعّدت طهران موقفها ضد المملكة العربية الســـعودية ودولة الإمـــارات العربية المتحـــدة، وكررت ادعاءاتهـــا بتبعية البحرين لإيران، وذلـــك بالتزامن مع مطالبة زعماء الحركات الراديكالية بتقســـيم الدول العربية على أسس مذهبيـــة، ونقلت وكالة رويترز عن أحـــد زعماء هذه الجماعات المتطرفـــة قولـــه: «عندما يســـتقر الوضع في العراق وتســـود ديمقراطية حقيقية، سيسود كيان شيعي آخر في المنطقة إضافة إلى إيران». وأكد المحلل الألماني ماكســـميلان تيرهال أن أنظار هذه الجماعات في شرقي شبه الجزيرة العربية ترنو إلى تحقيق الحكم الذاتي[١].

في هذه الأثناء واجهت مؤسســـات دعم الديمقراطية تهماً رســـمية بدعم الجماعات الراديكالية مـــن خلال: إقامة ندوات حوارية وعقد اجتماعات تنســـيقية مع زعماء هذه الجماعات[٢]، وتنظيم برامج تدريبية لهم في دول عربية وغربية، كبرنامج «قادة الديمقراطيـــة» الذي رعته وزارة الخارجية الأمريكية عام ٢٠٠٨ وشـــارك فيه عدد من قادة الجماعات المتطرفـــة التي لا تؤمن بالديمقراطية من حيث المبدأ[٣].

وتعتبر مؤسســـة «الوقف القومـــي للديمقراطية» (NED)، إحدى أبرز المؤسســـات التي اتهمت بدعـــم جماعات المعارضة المتطرفـــة وتمويلها فيما يخالف قانون الدول التي تنشـــط فيها هذه الجماعات، وقد واجهت هذه المؤسسة – التي تعمل في أكثر من ١٠٠ دولة حول العالم – تهماً بخرق قوانين البلاد التي تعمل فيها، خاصة فيما يتعلق بتمويل هذه الجماعات[٤].

(1) Ibid, p. 71.

(٢) يمكن الحديث عن خمس مؤسسات أمريكية تعمل في مجال دعم الديمقراطية في الشرق الأوسط، هي: الوقف القومي للديمقراطية (NED): وهي مؤسسة شبه رسمية، تأسست عام ١٩٨٣، وتهدف إلى تمويل المؤسسات الديمقراطية حول العالم دون الحاجة إلى الدعم الحكومي المباشر؛ والمعهد القومي الديمقراطي للشؤون الخارجية (NDI): وهي مؤسسة غير ربحية يتم تمويل أنشطتها من قبل (NED)، وهدفها دعم الديمقراطية وترسيخ مؤسساتها في مختلف دول العالم؛ والمعهد الجمهوري الدولي (IRI): الذي يهدف إلى ترسيخ مفاهيم الحرية، ودعم جهود الحكم الذاتي، وتعزيز دور القانون في مختلف دول العالم، ويحصل على تمويله من قبل الوقف القومي للديمقراطية؛ ومبادرة الشراكة الشرق أوسطية (MEPI): التي تعمل من خلال برامج تديرها وزارة الخارجية الأمريكية، وتهدف إلى دعم التطور السياسي والاقتصادي والتربوي في الشرق الأوسط؛ والوكالة الأمريكية للتطوير الدولي (USAID): وتهدف إلى دعم التطور السياسي والاقتصادي في مختلف دول العالم.

(3) Congressional Research Service, Bahrain: Political Structure, Reform and Human Rights, Kenneth Katzman, (28th February 2011).

(٤) بلغت ميزانية (National Endowment for Democracy) السنوية: ١١٥ مليون دولار عام ٢٠٠٩، و١١٨ مليون دولار عام ٢٠١٠، و١٠٥ ملايين دولار عام ٢٠١١، وبلغ مجموع ما أنفقته (NED) في الشرق الأوسط عام ٢٠٠٩ على برامج دعم الديمقراطية ١٧،٨٢١،٠٠٠ دولار، في حين أنفقت ١٥،٤٢٠،٠٠٠ دولار على هذه البرامج عام ٢٠١٠.

وعلى هامش برامج «دعم الديمقراطية» و«تمكين الأقليات»، شهدت الفترة الممتدة ما بين عامي ٢٠٠٨ و٢٠١٠ لقاءات مكثفة بين مســـؤولين غربيين وزعماء جماعات راديكالية تناولت سبل دعم هذه الجماعات في ممارســـة دور أكثر فاعلية في شـــؤون المنطقة، ومناقشـــة إمكانية تأســـيس كيان جديد في شـــرقي الجزيرة العربية على أسس مذهبية، وقد أكد هذه الحقيقة أحد المعارضين في الخارج بقوله: «حين أثير موضوع تقســـيم المملكة ركز المواطنون الشـــيعة على موضوع الإصلاح السياسي والبقاء ضمن البوتقة الوطنية رغم الإغراءات الكثيرة التي حاولت بعض الجهات الأمريكية الدخول من خلالها لتفتيت الوضع المحلي»[٥].

وشهد عام ٢٠٠٩ بصفة خاصة محاولات حثيثة من قبل هذه المجموعات لتأزيم الموقف السياســـي فـــي دول الخليج العربية، والمطالبة بتشـــكيل كيانات مســـتقلة، ونظمت هـــذه الجماعات حملات احتجاجية اتســـمت بالعنف وتتوّجت بدعوة أحد رجال الدين المتشـــددين إلى الانفصال السياســـي، وحض أتباعه على حمل الســـلاح ضد الدولة قائلاً: «كرامتنا أغلى من وحدة هذه البلاد... لن تنالوا عدلاً إلا بالجهاد»[٦].

وقد دأب عديد من المحللين الغربيين على دراســـة مظاهر الدعم الأمريكي لهذه الجماعات المتطرفة وإبداء التفهم لمطالبها بالانفصال السياسي أو الحكم الذاتي، ومن أبرز هذه الدراسات: كتابـــات الباحث الأمريكي من أصل إيراني ولي نصر، الذي أكد أن الولايات المتحـــدة الأمريكية قد تبنّت مبدأ «تمكين الأقليات» في العالم العربـــي منذ عام ٢٠٠٣، وقد فرض ذلك عليها وضع سياســـة جديدة للتعامل مع الأقليات في المنطقة الممتدة ما بين لبنان وباكستان[٧].

ورأى نصـــر أن مصالح الولايات المتحـــدة قد ارتبطت منذ ذلـــك الحين بجماعات إثنية وطائفية متحمســـة لمشـــاريع دعم الديمقراطيـــة الأمريكية، مؤكداً أن مفتاح التغيير في الشـــرق الأوســـط ينبع من العراق التـــي تم تغيير موازيـــن القوى فيها بصـــورة «أكثر واقعية»، حيث يضمحـــل دور الحركات العلمانية فيها وتندرس معالم الأيديولوجيا والفكر، في حين تفرز العمليات

(٥) حمزة الحسن، «علاقة شيعة السعودية الخارجية مذهبياً وسياسياً»، موقع الجزيرة نت، (١٢ يناير ٢٠٠٨).

(6) Sarah Leah Whitson, "Denied Dignity: Systematic Discrimination and Hostility toward Saudi Shia Citizens," Human Rights Watch, (3rd September 2009).

(٧) ولي نصر: باحث أمريكي من أصل إيراني، يحمل درجة الأستاذية في السياسة الدولية، وهو عضو بمجلس العلاقات الدولية الأمريكي، ومجلس الشؤون الأمريكية الإيرانية، كما يتمتع بصلة وثيقة مع أقطاب الإدارة الأمريكية وعدد من أعضاء الكونغرس، وقد اهتم مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية الأمريكي بنشر أبحاثه.

الانتخابيـــة ممثلين عـــن الأعراق والطوائف بدلاً من منســـوبي الأحزاب والحركات السياســـية، مشـــيراً إلـــى أن هذه القوى المجتمعية هي التي ســـتهيمن على الساحة السياسية في الشرق الأوســـط وستســـتحوذ على الموارد والثروات في مرحلة ما بعد الإطاحة بالدكتاتوريات[١].

وفي دراسة حول ارتباط المصالح الأمريكية بالأقليات؛ توقع الباحث الأمريكي جيمس لي زيادة تأثير الأقليات على الشـــؤون السياســـية والاقتصادية في منطقة الخليـــج العربي، خاصة أن إيـــران هي الدولة الأكبر في المنطقة وتمـــارس نفوذاً على عدد من الجماعات المرتبطة بها فكريـــاً وعقائدياً، ورأى لي أنه بات من المتعيّن على الدول الغربيـــة أن تبدي اهتماماً أكبر بالعوامل الجيوسياسية في الخليج العربي بدلاً من الاقتصار على سياسة الضغط الاقتصادي والسياسي على إيران[٢].

وفي عام ٢٠١١ نشـــرت مجلة «فورين بوليســـي» الأمريكية دراســـة للباحث «أ. بينات» انتقد فيها نزوع الأنظمة الملكية إلى المحافظـــة على الوضـــع القائم مما ينذر بعواقـــب وخيمة على الأوضاع الأمنية في المنطقة. وأشـــار الباحـــث إلى إمكانية أن تتعـــاون الإدارة الأمريكيـــة مع إيران لدعـــم جماعات المعارضة بهدف تعزيز الديمقراطية في هذه الدول[٣].

وقد مثلت مرحلة الربيع العربي فرصة ســـانحة لأن يتقدم مجموعة من الباحثـــين الغربيين بأطروحـــات أكثر جرأة فيما يتعلـــق بإعادة رســـم خريطة المنطقة العربية على أســـس إثنية ومذهبيـــة؛ ففي الوقت الذي ركزت فيه الحركات الشـــعبية في الجمهوريات العربية على تعزيز الحريات العامة وإصلاح أنظمة الإدارة والحكم؛ انخرطت بعض مراكـــز الفكر الغربية في دعم توجهات جماعات اللوبي الإيراني والإسرائيلي لمناقشة المشاريع التفتيتية وترجيح كفة مطالب الجماعات المتشددة بالحكم الذاتي والانفصال السياسي.

ويمكن القول بأن المرحلة ٢٠١١-٢٠١٣ قد مثلت تحولاً كبيراً في الفكر الغربي نحو ترجيح مشاريع إعادة تشكيل المنطقة على أســـس فيدرالية، وذلك في ظل اضمحلال دور الدولة وانحسار الأيديولوجيا وعجز المجتمعات العربية عن إفراز نخب سياســـية ناضجة لتحل محل الأحزاب الشمولية البائدة.

(١) Vali Nasr. "Regional Implications of the Shia Revival in Iraq." The Washington Quarterly. Summer (٢٠٠٤): ٧-٢٤.

(2) James Leigh, "Shia Islam and Oil Geopolitics," Energy Bulletin, (23rd Dec. 2008).

(3) A. Bayyenat, "U.S. Policy Towards Bahrain and the Iran Factor," Foreign Policy Journal, (8th June 2011).

مرحلة الثورات الشعبية وظهور مفهوم «التجزئة داخل الحدود» (٢٠١١-٢٠١٣)

في أتون حالـــة الفوضى التي انتابـــت الجمهوريات العربية ابتداء من عام ٢٠١١، تنامت ظاهرة الولع الغربي بخريطة المنطقة العربيـــة؛ إذ بدأت تظهر رســـومات جديدة وخرائط مســـتحدثة لإعادة تقسيم المنطقة وفق مصالح القوى الدولية المتنافسة، ومثل المشـــهد الإنساني المروع للأزمة الســـورية فرصة لتناول الثورات العربية من منظور جديد؛ ففي محاضرة بمدرســـة «جيرالد فورد للسياسة العامة» طرح عراب السياسة الخارجية الأمريكية هنري كيســـنجر فكرة تقسيم سورية على أســـس إثنية وطائفية، قائلاً: «هنالك ثلاث نتائج ممكنة: انتصار الأســـد، أو انتصار السنّة، أو نتيجة تنطوي على قبول مختلـــف القوميات بالتعايش معاً، ولكن في مناطق مســـتقلة ذاتياً على نحو أو آخر، بحيث لا تقمع بعضها البعض، وهذه هي النتيجة التي أفضّل رؤيتها تتحقق»[٤].

والحقيقة هي أن رؤية كيســـنجر لحل الأزمة الســـورية عبر تقســـيم الكيان الجمهوري على أسس إثنية ومذهبية لا تنبع من محـــض هواجس ذاتية لدى وزير الخارجية الأمريكي الأســـبق؛ بـــل تأتي ضمن مراجعات تجريها مراكـــز الفكر الغربية وبعض الجهات الرســـمية التي بدأت تدعو في مرحلة الثورات العربية إلى إعادة فرز القوى السياســـية وفق معادلة تفتيتية تقوم على المحاصصة داخل إطار الدولة.

فقد رأى الباحث في جامعة هارفرد، «روجر أوين»، أن التسوية الغربيـــة للمنطقة العربية عقب الحرب العالمية الأولى أنتجت دولاً مصطنعة لا يزال تحقيق الاســـتقرار متعذراً دون حكم عســـكري اســـتبدادي، ما يدفع بالمجتمع الدولي اليـــوم للبحث عن ترتيبات

(4) Henry Kissinger characterizes Syrian war as «ethnic and sectarian conflict,» discusses other foreign policy issues at Gerald Ford centennial event, http://www.fordschool.umich.edu/news/?news_id=1111 (Monday, July 1, 2013).

جديدة تهدف إلى تحقيق الاستقرار بصورة أكثر واقعية، وذلك من خلال إعادة تقسيم المنطقة وفق حدود جديدة تحظى باعتراف عالمي كما وقع في السودان، أو من خلال تطبيق مفهوم «التجزئة ضمن الحدود» كما هو الحال في العراق، ورأى أوين أن السيناريو الأخير هو الأفضل بالنسبة للحالة السورية، إذ إن البديل قد يتمثل في نشوء دولة فاشلة يمكن أن تؤثر سلباً على جيرانها[1].

وفي دراسة موازية أشار الكاتب في صحيفة «نيويورك بوست»، أرنولد ألرت، إلى ظهور عوامل التحلل على خريطة المنطقة العربية بعد مرور نحو قرن ساد فيه الحكم الاستعماري ثم العسكري الشمولي، ورأى ألرت أن الصورة الأنسب لضمان استقرار الكيان الجمهوري في سورية تكمن في تأسيس نظام «ترويكا» تتوزع السلطة فيه بين السنة والأكراد والعلويين، مشدداً على ضرورة وضع المصالح الأمريكية على قمة الحسابات في ترتيبات المرحلة القادمة للبلاد[2].

وعلى نهج سابقيه نشر الباحث بجامعة «جورج تاون»، غبريال شينمان، بحثاً أشار فيه إلى أن الشرق الأوسط يدفع ثمن أخطاء الدول الغربية عندما رسمت خريطة المنطقة في مطلع القرن العشرين، مؤكداً أن مفتاح حل الأزمات السياسية في مرحلة الربيع العربي يكمن في إعادة رسم خريطة المنطقة فيما يتناسب مع طموحات الأقليات الإثنية والمذهبية، مستشهداً بمبادئ ولسون الأربعة عشر التي أقرت حق الشعوب في تقرير مصيرها خلال مفاوضات السلام التي أعقبت الحرب العالمية الأولى[3].

جدير بالذكر أن المؤسسات الإعلامية ومراكز البحث الإسرائيلية بادرت من جهتها إلى تبنّي مفهوم إعادة رسم خريطة المشرق العربي وفق مفهوم «التجزئة ضمن الحدود» باعتبارها حلقة في سلسلة الترتيبات النهائية لعملية السلام؛ فقد نشر رئيس تحرير صحيفة «هآرتز» العبرية، ألوف بن، مقالاً أكد فيه ضرورة أن تسفر تطورات المنطقة عن صياغة خريطة سياسية جديدة تحترم حقوق الشعوب في تقرير مصيرها، وذلك عبر تأسيس كيانات سياسية جديدة، وهو الأمر الذي سيكسر عزلة إسرائيل ويتيح لها مجال المناورة ويعزز فرص تواصلها مع شعوب المنطقة، واختتم بن مقالته بالقول: «لا نستطيع تجاهل أن إسرائيل هي لاعب أساسي في السعي نحو إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وترسيم حدودها، وفي سياق متصل لن تكون إسرائيل بمنأى عن تأثيرات تفكك الدول المجاورة لها، لا سيما الأردن وسورية والمملكة العربية السعودية، حيث يمكن لإسرائيل أن تتبنّى سياسة ذكية تمكنها من تحديد الفرص الكامنة لانبثاق دول جديدة، وتساعدها على استغلال هذه الفرص، وتجعلها قادرة على احتواء عملية التحول الحتمي بهدف تعزيز قوتها ونفوذها في المنطقة»[4].

ومنذ ظهور مؤلَّفه «كيف تدير العالم» عام ٢٠١١[5]؛ يعتبر الباحث في مؤسسة «أمريكا الجديدة»، باراج خانا، أحد أبرز المنادين بإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، حيث توقع أن يصل عدد الدول المستقلة في العالم خلال الفترة القادمة إلى ٣٠٠ دولة بدلاً من ٢٠٠ دولة اليوم، وبناء على ذلك فقد دعا خانا في مقال نشر بصحيفة «نيويورك تايمز» إلى التعامل مع الأزمات السياسية في المنطقة من خلال حلول جذرية تتلخص في تأسيس دول علوية وكردية، وأخرى قومية في آسيا الوسطى تحت مسمى «أذربيجان الكبرى»[6].

وفي مقال آخر نشرته مجلة «فورين بوليسي» بعنوان: «الانفصال قد يكون مفيداً»، رأى خانا أن ولادة دولة جنوب السودان تمثل بداية الترتيبات لولادة دول جديدة في الشرق الأوسط على أسس إثنية ومذهبية. واقترح الباحث حزمة من الآليات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لضمان استمرار هذه الدول واستقرارها، منبهاً إلى ضرورة المزج بين المرونة والقسوة في تحقيق طموحات شعوب المنطقة، إذ إن البديل الوحيد لحالة «الصراع الدائم» داخل هذه الدول يكمن في منح الشعوب حق تقرير المصير مهما كانت التكلفة. ودعا الغربية إلى تقديم الدعم للهيئات الإقليمية والجماعات الانفصالية لتأهيلها حتى تكون قادرة على إنجاز عملية إعادة التقسيم[7].

ويمكن القول إن الأزمة السورية الراهنة مثلت نموذجاً لدى عديد من مراكز الفكر الغربية لتطبيق مفهوم «التجزئة ضمن الحدود» وفق النسق العراقي، حيث نشرت في الأشهر الثلاثة الماضية مجموعة من الدراسات التي تقترح حل الأزمة السورية على أساس إعادة الفرز الجيو-سياسي ضمن إطار الحدود القائمة،

(١) روجر أوين، «المشرق العربي: من ترسيم الحدود إلى التجزئة ضمن الحدود»، صحيفة الحياة، ٣١ مايو ٢٠١٣.

(2) Arnold Ahlert, "Obama's Iraq Surrender," Frontpage Mag, http://frontpagemag.com/2013/arnold-ahlert/obamas-iraq-surrender-brings-mideast-meltdown/ (May 31 2013).

(3) Gabriel Scheinmann, "The Map that Ruined the Middle East," The Tower, http://www.thetower.org/article/the-map-that-ruined-the-middle-east/ (July 2013).

(4) Aluf Benn, "Caution: Middle East under Construction," Haaretz, 25th March 2011.

(5) Parag Khanna , How to Run the World: Charting the Course to the Next Renaissance, Random House (2011).

(6) Parag Khanna and Frank Jacobs, "The New World," The New York Times, September. 22, 2012.

(7) Parag Khanna "Breaking Up is Good to Do," Foreign Policy, (13 January 2011).

ولعل أبرزها الخريطة التي نشرها «معهد دراسات الحرب»، والتي توقعت تقسيم الكيان الجمهوري إلى ثلاثة أقسام: رقعة شمالية شرقية يسيطر عليها الأكراد، وأخرى وسط وشمال غربي البلاد تسيطر عليها المعارضة في حلب، وذلك مقابل الاعتراف الدولي بسيطرة النظام على دمشق وحمص واللاذقية وطرطوس[1].

مشاريع التقسيم وإشكالية الهوية السياسية لدى الجمهوريات العربية

استعرضت هذه الدراسة تطور وجهات نظر بعض مراكز البحث الغربية في المستقبل السياسي للمنطقة العربية خلال الفترة ٢٠٠١-٢٠١٣، من خلال الاستراتيجيات الثلاث التالية:

١ طرحت مؤسسات أمريكية مقربة من دوائر اتخاذ القرار في وزارتي الخارجية والدفاع الأمريكيتين فكرة إعادة رسم الخريطة العربية، عبر استنساخ التجربة العراقية وإعادة تطبيقها في الخليج العربي، وقد استقطبت هذه المخططات اهتمام عدد من المسؤولين الأمريكيين في الفترة ٢٠٠٣-٢٠٠٧، إلا أنه لا تتوافر دلائل واقعية تثبت اقتناع الموقف الرسمي بأي من هذه المشاريع، ولا شك أن تدهور الأوضاع الأمنية عقب الانسحاب الأمريكي من العراق قد دفع بمراكز البحث لتبني خيارات أخرى لإعادة الفرز السياسي في المنطقة.

٢ في مقابل مشاريع التقسيم التي طرحتها مراكز الفكر، تبنّت الحكومات الغربية مفاهيم تعزيز الإصلاح السياسي في البلاد العربية كخيار استراتيجي، وترتكز هذه السياسة على إعادة صياغة الأنظمة السياسية من خلال إضعاف مؤسسات الحكم المركزي ودعم المجموعات الإثنية والمذهبية التي تطالب بدور أكبر في إدارة شؤونها ضمن إطار الدولة، وفي الفترة الممتدة ما بين ٢٠٠٧ و٢٠١٠ ظهرت ملامح التعاون بين الإدارة الأمريكية وبعض المنظمات التي تمتلك أجندات مذهبية، ما أدى إلى تنامي مشاعر القلق لدى بعض الحكومات العربية، خاصة أن هذه الجماعات تغلغلت في مؤسسات صنع القرار الغربي وتمكنت من توصيل منظومة من الأفكار المتعلقة برفع وتيرة تمثيلها السياسي في المنطقة.

٣ في مرحلة الثورات الشعبية التي اجتاحت المنطقة في الفترة ٢٠١١ - ٢٠١٣، بدأت تظهر مفاهيم جديدة في تطبيقات التقسيم والتي يمكن تسميتها: «التجزئة داخل الحدود»، والتي تنطلق من القناعة بعدم جدوى مشاريع التقسيم في ظل المعادلة الإقليمية المعقدة.

لكن المعضلة الأكبر تكمن في عجز النخب العربية المثقفة عن التقدم بأطروحات ناضجة للتعامل مع المشاكل المجتمعية وتحديات الإصلاح السياسي، وذلك في ظل تنامي الفكر المتطرف واضمحلال دور الدولة ومؤسسات الحكم المركزي.

وفي ظل غياب الدراسات العربية الجادة لمعالجة مشاكل الهوية السياسية في المنطقة العربية ومستقبل الكيانات الجمهورية؛ تنتج مراكز البحث الغربية دراسات تنطلق من منظور قاصر عن استيعاب المجتمعات العربية وبنيتها التعددية؛ حيث يعمد الباحثون الغربيون إلى عقد مقارنات خاطئة بين تشكل الدول العربية وتشكل الدول القومية في البلقان إثر انهيار الإمبراطوريتين: العثمانية والنمساوية - الهنغارية، ويظهر الخلط لدى الباحثين الغربيين بين مفهوم «الدولة القومية» من جهة، والدولة «الإثنية» و«المذهبية» من جهة أخرى.

وسواء كان ذلك الخلط متعمداً أو ناتجاً عن ضحالة في الرؤية لدى الباحثين الغربيين المحدثين؛ فإنه يجدر التنبيه إلى أن تشكل الدول الحديثة شرقي أوروبا قد تزامن مع وقوع حربين عالميتين كلفتا أوروبا ملايين الأرواح، وجاءت حروب التطهير الديني والعرقي في يوغوسلافيا خلال الفترة ١٩٩١ - ١٩٩٩ لتذكر المجتمع الدولي بأن دول أوروبا الشرقية لا تزال بعيدة عن تحقيق الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي.

أما في المنطقة العربية فإنه لا يمكن تصور قيام دول مستقلة على أساس مذهبي أو إثني؛ إذ إن المجتمعات العربية تتسم بالتعددية، في حين يغلب على المدن العربية ظاهرة الاختلاط بين مختلف المجموعات، ما يجعل مفاهيم الفرز السياسي على أسس إثنية ومذهبية أمراً متعذراً، وقد حاولت فرنسا إنشاء منظومة من الدول الطائفية في سورية خلال الفترة ١٩٢٠ - ١٩٣٦، إلا أن جميع محاولاتها باءت بالفشل[2].

وفي مقابل هذه الأطروحات التفتيتية التي تتبنّاها معاهد الغرب؛ يمكن القول بأن الوقت قد حان لتقصي النماذج الناجحة في مجال التكامل الإقليمي، وتحفيز النخب العربية لملء الفراغ والخروج بأطروحات علمية جادة لمعالجة الهوية السياسية للكيانات العربية في هذه المرحلة الحرجة من التحول البنيوي.

(1) Will Fulton, Joseph Holliday and Sam Wyer, "Iranian Strategy in Syria," joint report by AEI's Critical Threats Project and the Institute for the Study of War, (May 2013).

(٢) تمثل المشروع الفرنسي في إعلان: دولة لبنان الكبير في غرة سبتمبر سنة ١٩٢٠، ودولة حلب في ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٠، ودولة العلويين في ٢٣ سبتمبر ١٩٢٠، ودولة جبل الدروز في ٢٠ أبريل سنة ١٩٢١، ودولة دمشق التي اتخذت من العاصمة اسماً لها، لكن هذه الدويلات الطائفية لم يكتب لها النجاح، فقد أثبتت التجربة أن عملية إنشاء خمسة أجهزة إدارية متكاملة من مسؤولين وموظفين وعسكريين، وتأسيس بنية تحتية وخدمات بلدية وصحية وبريدية في كل دولة من هذه الدويلات؛ كانت عملية باهظة التكاليف، فانضمت دولتا حلب ودمشق في ١٩٢٤، واتخذ قرار ضم مناطق الدروز والعلويين للدولة السورية في ١٩٣٦.

ما وراء التوجه الصهيوني لفرض الس

■ د. صالح النعامي(*)
@salehelneemi

تتجه إسرائيل بخطوات ثابتة ومتسارعة نحو تهويد المسجد الأقصى، بعد أن قطعت شوطاً كبيراً في تهويد مدينة القدس. ومن المفارقة أن يتزامن تسارع خطوات تهويد المسجد الأقصى، التي تتم تحت غطاء حكومي مباشر وغير مباشر، مع تواصل المفاوضات بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية. وما يثير الاستهجان أن أحداً في السلطة الفلسطينية وفي النظام الرسمي العربي بشكل عام، لا يجد في الإجراءات الصهيونية ما يدعو للقلق على مصير أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

وقبل الخوض في حصر وسرد مظاهر وأنماط عمليات التهويد التي تستهدف الأقصى نفسه، لا حاجة هنا للتذكير بأن الشريعة اليهودية المحرَّفة ترى في الحرم القدسي الشريف المكان الذي يضم تحت جنباته الهيكل المزعوم، حيث يقدرون أنه يقع تماماً تحت مسجد "القبة المشرفة". ونحن هنا سنحاول التدليل على طابع الإجراءات التي تعكف عليها إسرائيل وتهدف لتهويد الحرم القدسي الشريف.

(*) باحث في الشؤون الإسرائيلية.

السيادة اليهودية على المسجد الأقصى؟

مشاريع قوانين برلمانية لفرض السيادة اليهودية على الحرم

إن أخطر مظاهر التحرك الصهيوني لتهويد المسجد الأقصى تتمثل في المبادرة التي يعكف عليها حالياً وزراء ونواب في الائتلاف الحاكم، والهادفة إلى تمرير مشروع قانون في البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) ينص على فرض السيادة اليهودية على المسجد الأقصى. وقد بادر إلى طرح الفكرة نواب من حزب "البيت اليهودي" الذي يرأسه نائب رئيس الوزراء ووزير الاقتصاد، نفتالي بنت، وهو ثالث أكبر حزب في الائتلاف الحاكم. وعلى الرغم من عدم وضوح الاستحقاقات المترتبة على هذا القانون في حال أقر، فإنه بكل تأكيد سيفضي إلى نزع صلاحيات إدارته من دائرة الأوقاف الإسلامية، وتسليمها لوزارة الأديان الصهيونية. وكما يُستدل من الجدل الدائر في الكنيست حول مسوغات القانون، فإن المتحمّسين له يرون أنه يهدف إلى توفير مسوغ قانوني ودستوري يسمح بإحداث نقلة كبيرة في تعاطي الحكومة الإسرائيلية مع المسجد الأقصى، ويمهّد لتبنّي سياسات تهويد أكثر وضوحاً، وفي المقابل يقلص من الحضور الإسلامي فيه. وعلى الرغم من أن ديوان نتنياهو يتحفظ على مشروع القانون، إلا أن المفارقة تكمن في حقيقة أن أكثر المتحمسين لسنّ القانون هم تحديداً نواب حزب "الليكود" الذي يرأسه نتنياهو نفسه؛ وعلى رأس هؤلاء: زئيف إلكين، نائب وزير الخارجية، وداني دانون، نائب وزير الحرب، وأوفير أوكينوس، نائب وزير الإسكان. ويحظى مشروع القانون بدعم حزب "إسرائيل بيتنا" الذي يتزعمه أفيغدور ليبرمان؛ مع العلم أن البرنامج الانتخابي لهذا الحزب تضمن بنداً ينص على التزام الحزب بفرض السيادة اليهودية على المسجد الأقصى.

محاولة تكريس حق اليهود بالصلاة في "الأقصى"

على الرغم من أن السلطات الصهيونية تسمح لليهود بتدنيس المسجد الأقصى منذ أن تم احتلال المدينة المقدسة خلال حرب ١٩٦٧، إلا أنها في المقابل حرصت على عدم السماح لهم بالصلاة في المسجد الأقصى، وذلك لمسوغين أساسيين:

أولاً: مسوغ سياسي: لقد خشيت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة أن يؤدي السماح لليهود بالصلاة في المسجد الأقصى إلى ردة فعل فلسطينية وعربية وإسلامية عارمة تمسّ بالأمن "القومي" الصهيوني وتزيد من وتيرة عمليات المقاومة ومسوغاتها، انطلاقاً من الأراضي المحتلة وعبر الحدود مع الدول العربية، وخشية أن يتم توظيف الأمر في تبرير ضرب الأهداف الإسرائيلية واليهودية في العالم. وقد كان من

الواضح أن إسرائيل خشيت المسّ بمكانتها الدولية والإقليمية بسبب ردات الفعل المتوقعة على القمع الذي ستواجه به آلة الحرب الصهيونية الغضب الفلسطيني.

ثانياً: مسوغ "فقهي": لقد أصدرت الحاخامية اليهودية الكبرى، التي تمثل المؤسسة الدينية الرسمية في الكيان الصهيوني، فتوى تحظر على اليهود الصلاة في المسجد الأقصى. وقد زعمت الفتوى، التي صدرت عام ١٩٦٨، أن رفات الحاخامات واليهود الذين قتلوا أثناء تدمير الهيكل الثاني قد اختلطت بتراب الحرم القدسي، لذا؛ فإن الصلاة لا تجوز إلا بعد إعادة بناء الهيكل وإعادة دفن رفات الحاخامات واليهود. لقد التزمت جميع المرجعيات الدينية اليهودية بهذه الفتوى حتى عام ٢٠٠٨، حيث شكل هذا العام نقطة تحول في الموقف "الفقهي" من مسألة صلاة اليهود في المسجد الأقصى؛ فقد وقّع العشرات من حاخامات المدن على فتوى تؤكد أنه يمكن تجاوز المسوغات التي استندت إليها الحاخامية الكبرى في تحريم الصلاة في الحرم القدسي الشريف. ومنذ ٢٠٠٨ حتى الآن أصبحت المرجعيات الدينية اليهودية التي تحث على الصلاة في المسجد الأقصى تمثل الأغلبية.

وقد استندت التنظيمات اليهودية المتطرفة إلى هذه الفتاوى في تبرير عمليات اقتحام المسجد الأقصى والصلاة فيه عنوة.

إن التطور الخطير الذي حدث على هذا الصعيد هو توجه وزراء في الحكومة ونواب من الائتلاف الحاكم للقيام بدور رئيس في تنفيذ عمليات الاقتحام والصلاة في المسجد الأقصى عنوة ودون التنسيق مع الشرطة الإسرائيلية نفسها، مستغلين الحصانة البرلمانية. وقد برز وزير الإسكان، أوري أرئيل، الرجل الثاني في حزب "البيت اليهودي" المتدين، بشكل خاص في تنظيم وقيادة عمليات اقتحام للمسجد الأقصى، حيث نظم وقاد مؤخراً ثلاث عمليات لاقتحام الأقصى، بمشاركة ساسة ونشطاء من حزبه. ولم يكتفِ أرئيل باقتحام الأقصى، بل قام بأداء ما يعرف بـ "صلاة بركات كوهنيم" قبالة قبة الصخرة المشرفة. وعرض أرئيل شريط فيديو يوثق أداءه الصلاة على موقع "مفجاش"، الذي يديره، والمتخصص في التحريض على اقتحام المسجد الأقصى.

وعلى خطى «أرئيل» سار «موشيه فايغلين»، النائب عن حزب الليكود الحاكم، وزعيم معسكر "القيادة اليهودية"، أحد أهم المعسكرات داخل الحزب، الذي صرح مراراً بأنه "من العار أن يبقى جبل الهيكل تحت سيطرة المسلمين". وقد تعهّد فايغلين، الذي تنافس أمام نتنياهو على زعامة الليكود، بأن يكون إعلان السيادة اليهودية على المسجد الأقصى أول قرار يتخذه في حال وصل إلى رئاسة الحكومة في إسرائيل. وتلعب نائبة الوزير المتدينة، تسيفي حوتبيلي، من حزب الليكود؛ دوراً مهماً في التحريض والمشاركة في عمليات اقتحام المسجد الأقصى، حيث اختارت قبل خمسة أشهر أن تحتفل بعقد قرانها في داخل المسجد الأقصى وتحت حراسة الشرطة الإسرائيلية. وتعد حوتبيلي من القيادات الشابة التي تجاهر بتطلّعها للصعود إلى قمة الهرم القيادي لليكود والحكومة. في هذه الأثناء، تعاظمت الدعوات داخل الكنيست والحكومة وفي أوساط النخب اليهودية، وضمنها النخب العلمانية؛ لتقاسم مواعيد الصلاة بين المسلمين واليهود في المسجد الأقصى على غرار ما تم في المسجد الإبراهيمي في الخليل. وتجرى حالياً مداولات بين ممثلي الأحزاب اليمينية والدينية حول سنّ قانون يلزم الحكومة بتقسيم مواعيد الصلاة في الحرم القدسي. ولا تقتصر الدعوات لاقتحام المسجد الأقصى على القيادات السياسية المتدينة، بل تعدّتها للقيادات العلمانية؛ فقد دعا الجنرال المتقاعد عوزي ديان، الذي شغل في السابق منصب نائب رئيس أركان الجيش ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية، طلاب المدارس والجامعات الإسرائيلية للانقضاض على المسجد الأقصى من أجل تكريس ما أسماه "العلاقة الأزلية بين الشعب اليهودي وهذا المكان".

الدعوة لتدمير المسجد الأقصى

ماذا يحدث لو دعا رجل دين مسلم في بلد عربي أو إسلامي إلى تدمير الكنائس في هذا البلد؟ بكل تأكيد فإن التنديد والشجب سينطلق من القيادات الدينية الإسلامية قبل غيرها ضد مثل هذه الدعوات. لكن في إسرائيل تبدو الأمور مختلفة تماماً، فمرجعيات دينية وازنة ومؤثرة تدعو جهاراً نهاراً إلى تدمير المسجد الأقصى، وبعض هذه المرجعيات مرتبطة بالحكومة وبالأحزاب المشاركة فيها.. فعلى سبيل المثال، يعد

الحاخام دوف ليئور، حاخام مستوطنة "كريات أربع"، المرجعية الدينيـــة الأبرز لحزب "البيت اليهـــودي" الذي يحتفظ بأربع حقائب وزارية في حكومـــة نتنياهو، وقد أفتى هذا الحاخام صراحة بوجوب العمل على تدمير المسجد الأقصى في أسرع وقت. وقد تبنَّت معظم المرجعيات الدينية الفتوى التي أصدرها الحاخام مردخاي إلياهو، الذي كان الحاخام الشـــرقي الأكبر لإســـرائيل، والتي نصت على أن "صفـــاء الحياة اليهودية في أرض إســـرائيل تتوقف على إعادة بناء الهيكل". وعلى الرغم من أن مردخاي لم يتحدث عن تدمير المسجد الأقصى بشكل صريح، إلا أن هذه الفتوى تتضمن دعوة ضمنية لتدميره، على اعتبار أن إعادة بناء الهيكل تتطلب تدمير الحرم.

وقد صـــدر مؤخراً كتاب في إســـرائيل يتناول المنظمات اليهوديـــة التي تُعنى بتدمير المســـجد الأقصى، حيث أحصى الكتاب ٣٠ منظمة، وضمنها منظمات نسوية. وبحسب الكتاب، فإن اختصاصات هذه المنظمات تتفاوت بين التخطيط الفعلي والمادي لتدمير المسجد الأقصى، وهي تعمل بشكل سري، في حين تتخصص منظمات أخرى في "تأصيل المسوغات الفقهية" التي توجب تدمير المســـجد الأقصى ونشرها وتسويقها لدى الجمهور الصهيوني، في مسعى لتكريس رأي عام داعم لتنفيذ هذا المخطط وتحمّل تبعاته؛ في حين أن هناك منظمات تُعنى بضمان توافر الدعم المادي والمالي لتحقيق هذه الغاية.. فعلى سبيل المثال، هناك منظمة نسائية يطلق عليها "نساء الهيكل" تختص بجمع الحلـــي والمجوهرات التي ســـيزيَّن بها الهيكل الثالث بعد إعادة بنائه.

تهويد محيط الأقصى

من المعروف أن الآلاف من العقارات والمنازل الفلسطينية التي تحيط بالمســـجد الأقصى قد تركهـــا أهلها في أعقاب حرب عـــام ١٩٦٧، حيث فـــرَّ بعضهم إلى الضفـــة الغربية، في حين نـــزح البعض الآخر إلى الـــدول العربية. وقد أقدم البرلمان الإســـرائيلي على سنّ قانون "أملاك الغائبين"، والذي منح الحكومة الصهيونية حـــق التصرف الحصري في جميع أملاك الغائبين الفلسطينيين، حيث استُغلت هذه المنازل وتلك العقارات في بناء جيـــوب يهودية في قلب البلدة القديمة من القدس، وتحديـــداً في محيط المســـجد الأقصى؛ لعزله عن الأحياء الفلســـطينية. ومـــن اللافت أن هنـــاك تعاوناً وثيقاً بين الحكومـــة الصهيونية وجماعـــات يهودية متخصصة في تنفيذ مشـــاريع التهويد في المدينة المقدسة، لا سيما منظمة "عطيـــرات كوهنيم"، التـــي يموّل جميع أنشـــطتها الملياردير اليهودي الأمريكي أورفينغ ميسكوفتيش، الذي جمع ثروته من خلال إدارة صالات القمـــار في أرجاء الولايات المتحدة. وقد تلقت مشاريع التهويد التي تستهدف محيط المسجد الأقصى دفعة قوية الأســـبوع الماضي، عندما ردت المحكمة الصهيونية العليا دعاوى ضد التمييز الذي تتّبعه الحكومة الإســـرائيلية فـــي تطبيق قانون "أملاك الغائبـــين"، حيث إن القانون يطبَّق بشـــكل انتقائي، بحيث إن الحكومة لا تضع يدها على أملاك الغائبـــين الخاصة باليهود، بل علـــى العكس، تظل عهدة لدى بلدية الاحتلال.

تهويدٌ بحماية المفاوضات

من الواضح أنه لم يكن ليتســـنَّى لإسرائيل أن تقدم على ما تقـــدم عليه من جرائم بحق المســـجد الأقصـــى ومدينة القدس مـــن دون توظيف المفاوضات التي تجريها الســـلطة الفلســـطينية معها، حيث إنه لا يمكن لطرف عالمي أو إقليمي أن يوجه نقداً لإســـرائيل بسبب سياســـاتها في القدس، في الوقت الذي تجري فيه السلطة الفلسطينية المفاوضات معها، دون أن تحرك قيادتها ســـاكناً، بل على العكس، يكافئ رئيس الســـلطة، محمود عباس، إســـرائيل بتعميق وتكثيف التعاون الأمني الذي يســـتهدف حركات المقاومة في الضفة الغربية. المفارقة أن ســـلوك السلطة شجع إســـرائيل لاتخاذ مزيد من الخطوات لتكريس إخـــراج قضية القدس من قائمة القضايا التي ستُبحث في المفاوضات؛ فقد قررت الحكومة الإسرائيلية أن طرح قضية القدس على طاولة التفاوض لن يتسنَّى إلا في حال وافق على ذلك ثلثا أعضاء البرلمان الصهيوني، مع العلم أن اليمين الديني واليمين العلماني يســـيطران على ٧٠٪ من المقاعـــد في البرلمان، وهذا يعنـــي أن مواصلة التفاوض بعد صدور هذا القرار تفريط واضح بالقدس ومقدساتها.

ناقـــوس الخطر يدق في القدس، الأقصى في خطر، فهل من مغيث؟!

مكاسب إقليمية محتملة

بين ثنايا «الغَزَل الإيراني»

■ محمد سليمان الزواوي(*)
zawawy@yahoo.com

أحدثت المكالمة الهاتفية بين حسن روحاني، الرئيس الإيراني المنتخب حديثاً، وبين الرئيس الأمريكي باراك أوباما؛ جلبة كثيرة على الساحتين الدولية والإقليمية، فيما اعتبره مراقبون أنه «غزل إيراني» للولايات المتحدة؛ حيث إنها مثلت علامة فارقة في تاريخ العلاقات بين البلدين، كما أنها اعتُبرت مؤشراً على انفراجة جديدة فيما يتعلق بالعلاقات الأمريكية الإيرانية. لكن تلك المكالمة أغضبت أطرافاً إقليمية أخرى؛ لأنها قد تمثّل من الجانب الآخر تحولاً في المنظومة الأمنية قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، لا سيما بالنسبة للمنظومة الخليجية، وأيضاً الكيان الصهيوني.

فتلك المكالمة لم تكن حدثاً عابراً منبتاً عن السياقين الإقليمي والدولي، فقد لمست دول الخليج العربية تحولاً في المواقف الأمريكية فيما يتعلق بإقليم الشرق الأوسط؛ بداية من انحسار الاهتمام الأمريكي بالمنطقة الذي تزامن مع انسحابها من العراق وتسليمه فعلياً لدائرة النفوذ الإيرانية، وما أعقبه من رفع يد الولايات المتحدة في حقبة أوباما عن ملف القضية الفلسطينية وسلام الشرق الأوسط، وانتهاءً بما مثّل ضربة قاصمة للقوى الخليجية، وهو عدم إيفاء الولايات المتحدة بوعدها بضرب نظام بشار الأسد في حالة تخطيه الخط الأحمر واستخدامه الأسلحة الكيميائية ضد شعبه.

(*) مدير وحدة العلاقات الدولية، المركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة.

وتلك الخطوة الأخيرة استدرّت غضباً سعودياً تمثل في عدم إلقائها كلمتها في الأمم المتحدة، وكذلك رفضها مقعداً في مجلس الأمن، وتلك الخطوات الاحتجاجية تعد مؤشراً على مدى وصول العلاقات الأمريكية – السعودية إلى منحنى حرج؛ فيما تتصاعد أصوات من داخل المملكة ومقرّبة من النظام الحاكم بأن الوقت قد حان لكي تعتمد السعودية على نفسها دون الالتفات إلى الولايات المتحدة، وأن تكون لها سياستها الخارجية المستقلة، وأن تتصرف كما لو أن أمريكا غير موجودة في المنطقة، وحينئذ ستتبع الولايات المتحدة سياسة السعودية في المنطقة وليس العكس، وذلك استباقاً لإمكانية قيام تحالف غربي إيراني محتمل أو صفقات سرية يتم عقدها ضد مصلحة دول الخليج.

لذلك؛ فإن الصورة الأوسع لتلك المكالمة التاريخية بين الرئيسين الأمريكي والإيراني، هي أن المنطقة يعاد تشكّلها وفقاً للمصلحة الإسرائيلية من جديد: انسحاب أمريكي من أجل ملاحقة القضايا الأخطر على الأمن الأمريكي في المحيط الهادئ، وترك المنطقة تتجاذبها الأطراف السنية الشيعية، وتعادل القوة بين الفريقين سيحقق الأمن لإسرائيل وسيبعد غبار المعارك عنها، فيما تدور رحى الصراع الإقليمي بعيداً عن ساحتها الخلفية، وذلك لن يتم بالأساس إلا في إطار صفقة أمريكية إيرانية.

فإيران تلعب دوراً وظيفياً مهماً لسياسات الولايات المتحدة في المنطقة، فبعد التلاحم العربي في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ضد الكيان الصهيوني، بزغت إيران بعد ثورتها عام ١٩٧٩ كثقل موازن لدول الخليج والعراق، وتحول الاهتمام إلى مواجهة ذلك الخطر القادم من الشرق، واستنزفت منذ ذلك الوقت قدرات تلك الدول، سواء في حرب طاحنة بين العراق وإيران، أو في سباق التسلح الذي تلا ذلك وكان للولايات المتحدة النصيب الأكبر من تلك الصفقات التي لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا.

واليوم، فإنه في غير المصلحة الأمريكية أن تنهار إيران اقتصادياً إلى حد الكسر وزوال ذلك «البعبع الشرقي» الذي يسحب العرب بعيداً عن إسرائيل، فقد أثبتت العقوبات الاقتصادية الغربية فعاليتها على قطاعي الطاقة والبنوك الإيرانية، وتصاعد أنين الشعب الإيراني من تلك العقوبات إلى الحد الذي جعله يستغيث في النهاية بالمرشح الإصلاحي حسن روحاني، والذي نجح من الجولة الأولى متفوقاً بفارق شاسع عن أقرب منافسيه الأكثر تشدداً وقرباً من خامنئي؛ فقد جاء روحاني ببرنامج يدفع التعاون الغربي والتعايش في المنطقة مع دول الجوار وإنعاش الاقتصاد، مع الاحتفاظ بحقوق بلاده في تخصيب اليورانيوم، الذي يعد خطوة من أجل تعزيز نفوذ بلاده الإقليمي.

لذلك؛ فإن رؤية روحاني هي أن القدرات النووية وسيلة وليست غاية، فالنفوذ الإقليمي هو الغاية، لكن في تلك الحالة فماذا ستفعل الوسيلة «السلاح النووي» للنفوذ الإقليمي إذا انهار الاقتصاد وأصبحت إيران دولة على حافة الانهيار السياسي والمجتمعي على حد سواء؟ لذلك جاءت تلك المكالمة التاريخية لتدشن عصراً جديداً في العلاقات بين إيران والغرب، وذوبان الجليد في العلاقة بين البلدين أزعج الأطراف الخليجية التي رأت الصورة تتشكل في غير صالحها.

فعلى النطاق الأوسع للصورة أيضاً أضيف محدد جديد للمعادلة، وهو أمن الطاقة الأمريكي؛ فبعد اكتشاف مخزونات هائلة من الغاز الصخري الأمريكي، والتي ربما تجعل الولايات المتحدة من أكبر مصدري الطاقة في العالم، وتوقعت وكالة الطاقة الدولية، التي تمثل مصالح الطاقة لأغنى ٣٥ دولة في العالم، أن تصبح الولايات المتحدة أول منتج عالمي للنفط بعد أربع سنوات، متجاوزة السعودية وروسيا، وأنها ستحقق الاستقلالية على مستوى الطاقة بحلول عام ٢٠٢٣[١]؛ فإن الاهتمام الأمريكي المستقبلي بالمنطقة بدا أنه في طريقه للتراجع، لا سيما أن الصين أيضاً اكتشفت مخزونات هائلة من ذلك الغاز، وهو ما سيجعل المعادلة كالتالي: انحسار أهمية الشرق الأوسط كمصدر للطاقة والمشكلات معاً، وزيادة قدرة الصين المستقبلية على أن تهدد عرش الولايات المتحدة بعد أن أصبحت عملاقاً اقتصادياً وأثبتت قدرتها على التصنيع العسكري، واليوم ستصبح لديها مخزونات هائلة من الطاقة أيضاً، وهو ما يجعل الولايات المتحدة تبدأ الاهتمام بذلك المارد الجديد الذي بدأ بالتشكل، وتنتقل أولويات الأمن القومي الأمريكي إلى البحر الأصفر وإلى شرق آسيا وإلى كيفية إحاطة ذلك المارد قبل أن يخرج من قمقمه.

لذلك من المصلحة الأمريكية وهي تغادر الشرق الأوسط، أن تنظر إليه من بعيد وهو يحطم بعضه بعضاً، وأن يسهم توازن القوى في حفظ أمن إسرائيل بالحفاظ على النفوذ الإقليمي الإيراني، الذي يلعب دوراً وظيفياً كمثل ذلك الذي يلعبه نظام بشار في سورية، لذلك كان تأجيل الضربة الأمريكية لدمشق محسوباً ومقدراً بالحفاظ على المنطقة كأحجية Puzzle غير مكتملة؛ فاكتمال الأحجية لصالح أحد الأطراف يعني تهديداً لأمن إسرائيل، وزوال إيران كدولة مهددة للخليج بانهيارها اقتصادياً سيسهم في التحام شطري الوطن العربي من جديد، وربما إعادة ظهور التيار القومي الذي يريد الانبعاث من رماد تجربة الإسلام السياسي المصرية من جديد.

وعلى الجانب الآخر من الخليج، فإن إيران مقتلها الاقتصاد، أما هدفها الأسمى فهو النفوذ الإقليمي، ومن أجل تحقيق تلك المعادلة الصعبة يجب عليها أن تتحول إلى حية ناعمة تتودّد إلى الجميع عرباً وعجماً، وذلك من أجل شراء الوقت ومن أجل إنعاش اقتصادها وكذلك تحقيق نفوذها الإقليمي الناعم، فالاصطدام الخشن السابق مع الغرب أنهك اقتصادها دون تحقيق فائدة تذكر، ما دفع الشعب الإيراني لاختيار روحاني أملاً في مستقبل أفضل على المستوى الداخلي، في تحدٍّ لخامنئي الذي لا يملك الآن سوى أن ينحني للعاصفة لكي لا ينهار نظام الملالي برمته تحت وطأة تشدده وعدم قدرته على إنعاش الاقتصاد.

فبالرغم من سيطرة خامنئي على النظام السياسي بأذرعه المختلفة وأهمها الحرس الثوري، بما يمثل القلب الصلب للنظام السياسي الإيراني؛ إلا أن كبح جماح روحاني ومبادراته الناعمة سيؤدي إلى انتكاسة سياسية داخلية، وسيؤدي إلى قلاقل شعبية لا يمكن لخامنئي أن يتحملها حالياً في ظل التدهور الاقتصادي؛ لذلك فإن فرص نجاح مبادرات روحاني مدفوعاً بتأييد شعبي تتزايد يوماً بعد يوم، فيما يتبقى الرهان الإقليمي على قبول تلك اليد الممدودة من روحاني بالسلام الإقليمي رهاناً صعباً.

فإيران تستشعر الرغبة الأمريكية في الانسحاب من المنطقة؛ لذلك فإن خيار روحاني هو «مساعدتها» على استكمال انسحابها بعيداً، وذلك بعقد صفقة بشأن برنامجها النووي، وبذلك تستعيد إيران عافية اقتصادها برفع العقوبات، وتستكمل نفوذها الإقليمي الذي عطلته العقوبات الاقتصادية، فيما تمد يدها بالسلام الإقليمي؛ فقد مارس روحاني غزلاً إقليمياً في الاتجاه الآخر، حيث وصف السعودية بأنها «دولة صديقة وشقيقة» للجمهورية الإسلامية في المنطقة، داعياً إلى رفع مستوى العلاقات بين طهران والرياض، وقال خلال استقباله مسؤولي بعثة الحج الإيرانية: إن «هناك الكثير من المشتركات والمصالح بين البلدين»، مؤكداً «ضرورة التحرك في مسار رفع مستوى العلاقات والتعاطي بين البلدين»[٢].

أما على الجانب السعودي، فيبدو أن الرياض عازمة على تدشين حقبة جديدة في سياستها الخارجية بالاستقلالية عن الولايات المتحدة، استشرافاً أيضاً لما هو آت من انحسار

(١) وكالة الأنباء الفرنسية، ٢٤ سبتمبر ٢٠١٣، نشرته القدس العربي بعنوان: «الغاز الصخري يبعث أحلام أمريكا بتحقيق اكتفاء ذاتي بالطاقة.. ومخاوف خليجية من تقلص السوق والعائدات»، على الرابط التالي:
http://www.alquds.co.uk/?p=87299.

(٢) سي إن إن العربية في ١٩ سبتمبر ٢٠١٣ على الرابط التالي:
http://arabic.cnn.com/2013/middle_east/919//iran.rohani.saudia/.

الاعتمـــاد الأمريكي على مصادر الطاقة الشـــرق أوســـطية مســـتقبلاً، وقد هنَّأ ملك السعودية الرئيس الإيراني الجديد بفوزه في انتخابات الرئاســـة في إيران، مشـــيداً بتصريحاته بشأن تحســـين العلاقات بين البلدين، وعبّرت البرقية، التي نشرتها وكالة الأنباء الســـعودية، عن تمنيات المملكة والشعب السعودي بموفور الصحة والسعادة للرئيس الجديد، والتقدم والازدهار للشعب الإيراني «الشقيق»، كما أشادت بتصريحات روحاني بشـــأن «حرصه على التعاون وتحسين العلاقات بين البلدين الشقيقين»[1].

فهل يؤدي الانسحاب الأمريكي من المنطقة إلى دفع القوى الإقليمية للعمل معـــاً من أجل إنهاء الملفـــات العالقة، والتي معظمها طائفيـــة، بأن تتقارب الأجندات والعمل على التعاون الإقليمي لا سيما في ظل اعتماد اقتصادات المنطقة الأحادية على النفط المهدد عرشه بالزوال؟

هناك مســـاران للمنطقة بعد التحـــولات الأخيرة: إما أن يســـعى كل فريق إلى ملاحقة نفوذه الإقليمي على حســـاب الآخر وتغليب المذهبية والطائفية على المصالح القومية العليا لشعوب المنطقة، وهنا يمكن للمنطقة أن تحطم بعضها بعضاً.

وإما أن تدفع المصالح المشتركة والتهديدات المشتركة أيضاً الجميـــع إلى العمل معاً من أجـــل تذويب الخلافات المذهبية ورفع مصالح الشعوب فوق مستوى الخلافات الضيقة والعمل على الاســـتقرار والتعاون الاقتصادي وانتشـــال اقتصادات المنطقة من الاعتماد المطلق على الغرب وتوســـيع نشـــاطاتها الاقتصادية في مختلف المجـــالات الأخرى غير تلك المعتمدة على النفط وصناعاته المشتقة منه.

ربما تدفع الخطوات الأمريكية الأخيرة بتغليبها مصالحها على مبادئها فيما يتعلق بالكيماوي السوري، الأطراف الإقليمية هي الأخرى إلى المسار الثاني، والذي يتطلب دبلوماسية شعبية أكثر من مجـــرد تحركات نخبوية على مســـتوى الحكومات؛ فمؤشرات فوز روحاني الساحق وتياره الإصلاحي في المجمل تعد مؤشرات مهمة يجب استثمارها على المستويات الشعبية لتقريـــب وجهات النظر بين شـــاطئي الخليج، كما أن اعتلال صحة خامنئي ومســـألة خلافته قد تدفع بمقعد آية الله لمن يكون أكثر عقلانية ورشاداً وعدم رغبة في المتاجرة بالمذهبية على حساب الشعوب، وعلى الجانب الآخر ربما يمثل التقارب الأمريكي الإيراني و«الصفقـــة المرتقبة» فرصة لدول الخليج لامتـــلاك برنامجها النـــووي هي الأخرى، مـــن أجل تحقيق التوازن الأمني في المنطقة، وأن يعمل الجميع على النظر إلى المصالح القومية العليا لشعوب المنطقة.

ربما مثّلـــت تلك المكالمة الهاتفية نقطـــة فاصلة في تاريخ العلاقات الأمريكية الإيرانيـــة، لكنها بالإضافة إلى الخطوات الأمريكية بعدم ضرب ســـورية ورعايتهـــا مصالحها العليا، مع بدء انســـحابها من المنطقة وزيادة اهتمامها بشـــرق آسيا، مع مخزونات الطاقة الأمريكية الجديدة؛ كلها تعد عوامل متضافرة من أجـــل أن تدفع القوى الإقليمية للعمـــل معاً من أجل أمنها ومصالحها المشتركة، وربما يبزغ عن ذلك الانسحاب الأمريكي تقارب إقليمي شـــبيه لذلك الذي كان دعـــا إليه نظام الدكتور مرسي، بتشكيل لجنة رباعية ســـعودية مصرية تركية إيرانية، من أجل حل المشكلات العالقة منذ عقود، لتكون تلك المنظومة الرباعية بديلاً للهيمنة الأمريكية على سياسات المنطقة.

لذلـــك؛ فإن الكرة الآن في ملعب روحاني، انتظاراً لمبادرة حقيقية تجسّد قدرته على تحقيق وعوده بالتقارب الإقليمي، وربما تسهم تركيا أيضاً في تحقيق وساطة من نوع ما بتوجّهها الســـابق الذي يهدف إلـــى تعظيم التعـــاون الإقليمي وإزالة الحواجز في العلاقات بين دول المنطقة وتصفير المشـــكلات، كما أننا بانتظار تشـــكل ملامح السياسة الخارجية السعودية الجديدة وإذا كانت بالفعل ستعمد إلى سياسة المبادأة والمبادرة، لا سيما بالسير في مســـار متوازٍ يحقق الاستقرار الإقليمي: تطوير علاقاتها مع إيران إلى آفاق جديدة، والبدء ببرنامجها النووي السلمي على حد سواء.

(١) الجزيرة نت في ١٧ يونيو ٢٠١٣، على الرابط التالي:
http://www.aljazeera.net/news/pages/c60fa27088-d44777--a346-fe9cff82d47a.

روحاني ومعاناة أهل السنة في إيران

■ صباح الموسوي(*)
@sabahalmousawi

بإلقاء نظرة على الخريطة السكانية لإيران، يمكن مشاهدة الآثار السلبية التي خلفتها ولا تزال تخلفها سياسات المسؤولين العنصريين على مكونات المجتمع الإيراني.. فإيران كما هو معروف بلد يتشكل من أقوام وشعوب مختلفة الأعراق والديانات والمذاهب، والشعب الفارسي ليس إلا واحداً من هذه المكونات المتعددة للدولة الإيرانية الحديثة التي كانت تعرف بـ «مملكة فارس» قبل أن يغيّر اسمها الشاه رضا بهلوي في ثلاثينيات القرن الماضي بعد انقلابه على الحكم القاجاري إلى «الدولة الشاهنشاهية الإيرانية»، وذلك بعد إخضاعه المناطق والأقاليم التي كانت تعيش في زمن الأنظمة التي سبقته (القاجارية، الإفشارية، الصفوية) بين الحكم الذاتي واللا مركزية الموسعة، إلى سلطة طهران المباشرة التي اتسمت في عهده بالدكتاتورية المطلقة، والتي أرخى فيها العنان للعنصريين الفرس لممارسة سياسة التمييز العنصري والطائفي ضد أبناء الشعوب والقوميات غير الفارسية، وهو ما دفع أبناء تلك الأقليات إلى مواجهة سياسات رضا خان بهلوي عبر الانتفاضات والثورات الشعبية وحركات التمرد المسلحة، إلا أن تلك الاحتجاجات سرعان ما كانت تخمد نتيجة القمع الشديد الذي كانت تواجهه من قبل الحكومة المركزية التي كانت تحظى بدعم القوى العظمى.

بعد انتصار الثورة الإسلامية شاعت أجواء من التفاؤل بين الشعوب والقوميات الإيرانية، وذلك اعتقاداً منها أن السياسات العنصرية والطائفية التي كانت تمارس ضدها قد ولت وسوف لن يكون لها أثر في عهد النظام الجديد الذي اتخذ من «الإسلام» عنواناً له. وعلى الرغم مما وعد به قادة النظام الجديد وما حمله دستور الجمهورية الإيرانية من مواد تنص على جزء من الحقوق الثقافية للقوميات؛ إلا أن ذلك لم يلغِ تذمر أبناء الشعوب والقوميات الإيرانية من السياسات التمييزية ضدهم، مستدلين على ذلك بجملة من الوقائع والوثائق التي يعرضونها كدلائل ملموسة على صحة ما يتهمون به نظام الجمهورية الإيرانية الذي لم يطبق المواد الدستورية التي تنص على نبذ التمييز الطائفي والعرقي، والاعتراف بالحقوق الثقافية والقومية للإثنيات الإيرانية، ومنها على وجه التحديد المواد الدستورية رقم ١٥ و١٩ و٤٨ التي تنص على أن يتمتع أفراد الشعب الإيراني من أي قومية أو عشيرة كانوا بالمساواة في الحقوق، ولا يعتبر اللون والعنصر أو اللغة وما شابه ذلك سبباً للامتياز، كما لا يجوز التمييز بين مختلف المحافظات والمناطق في مجال استغلال المصادر الطبيعية للثروة والموارد الوطنية العامة، وتنظيم وتقسيم النشاط الاقتصادي في مختلف المحافظات ومناطق البلاد بحيث يوظف في كل منطقة رأس المال والإمكانات الضرورية في حدود حاجاتها واستعدادها للنمو. وقد نصت المادة ١٥ من الدستور على حق القوميات الإيرانية بأن تكون لها صحفها ووسائل إعلامها وتدريس آدابها ولغاتها إلى جانب اللغة الرسمية، أي الفارسية،

(*) مركز دراسات المحمرة للثقافة والإعلام.

في جميع المراحل الدراسية، إلا أن تلك المواد الدستورية ورغم مضي ربع قرن من عمر الجمهورية الإيرانية، لا تزال مجرد حبر على ورق، علماً أن الوعود بتحقيق تلك المواد الدستورية كانت من أهم الشعارات الانتخابية لحملة الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي، ١٩٩٧ – ٢٠٠٥م، الذي ورغم ما حظي به من شعبية طوال مدة رئاسته التي استمرت ثماني سنوات، إلا أنه لم يتمكن من تطبيق تلك المواد المعطلة، وذلك بسبب النفوذ القوي للحركة الشعوبية المتطرفة والمتغلغلة في أحشاء النظام الإيراني بحسب ما يعتقده نشطاء الحركات السياسية لأبناء الشعوب والقوميات غير الفارسية التي تحمّل النظام الإيراني مسؤولية ما يحدث أحياناً من احتجاجات وأعمال عنف دامية في أقاليمها ومناطقها، والتي شهدت فيها إيران خلال العقود الماضية وقوع عديد منها، وكان أبرزها قد وقع في أقاليم أذربيجان وبلوشستان والأحواز وكردستان.

ويشكو السنة الإيرانيون عامة من سياسة التمييز ضدهم وهم يتساءلون عن السبب الذي يجعل السلطات الإيرانية تلجأ إلى هذه السياسة رغم أن أهل السنة الذين يقدر عددهم بأكثر من عشرين مليون نسمة لهم مساهمات كبيرة في انتصار الثورة ضد الشاه وقيام النظام الجمهوري الحالي، ولكن مع ذلك نجد أن السنة يعاملون كمواطنين من الدرجة الثالثة؛ فدستور الجمهورية الإيرانية يحرّم على السني تبوؤ المناصب العليا في الدولة، كمنصب رئاسة الجمهورية أو رئاسة البرلمان أو قيادة الجيش أو الشرطة أو مجلس الأمن القومي أو الاستخبارات. وقد خلت الحكومات الإيرانية المتعاقبة من وجود أي وزير سني، كما لم يتم تعيين محافظ أو سفير سني واحد طوال العقود الثلاثة تقريباً من عمر الجمهورية الإيرانية. أما أعضاء مجلس الرقابة الدستورية الذين يبلغ عددهم ١٢ عضواً، فجميعهم من الشيعة وليس فيهم سني واحد. وهناك كثير من الأمثلة الأخرى الدالة على السياسة التمييزية ضد أهل السنة.

يذكر أن أهل السنة في طهران وحدها يبلغ عددهم أكثر من مليون نسمة، غير أنهم محرومون من بناء مسجد واحد، حيث تعارض السلطات الحكومية السماح لهم ببناء مسجد.

في ظل الصخب الإعلامي الذي تطاير من طهران ومن مختلف العواصم الغربية عقب فوز الرئيس الجديد حسن روحاني الذي وصف بأنه «رجل دين معتدل» والذي يعتقد الإعلام الغربي أن يكون مفتاحاً لحلحلة كثير من الأزمات التي تمر بها إيران على الصعيدين الداخلي والخارجي؛ في ظل هذا الصخب الإعلامي غابت مأساة المئات من السجناء وعشرات المحكومين بالإعدام من أبناء السنة في إيران بمختلف قومياتهم، فقد تزايدت في الآونة الأخيرة، لا سيما بعد تشكيل حكومة روحاني، هجمة إصدار أحكام الإعدام وتنفيذ الإعدامات بحق الدعاة والنشطاء السياسيين من أهل السنة وعرب الأحواز، وذلك في الوقت الذي كان قد وعد فيه روحاني بأن سياسته ستكون مغايرة لسياسة سلفه أحمدي نجاد، غير أن ما تمخض لحد الآن بالنسبة لممارسة ومواقف حكومته من القوميات غير الفارسية عامة، وأهل السنة خاصة؛ يبعث على التشاؤم؛ فتزامناً مع ذهاب الرئيس روحاني إلى الولايات المتحدة الأمريكية لحضور اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة وإجراء مشاورات مع الإدارة الأمريكية، أصدر المرشد الأعلى للثورة والنظام في إيران «علي خامنئي» أمراً بالإفراج عن المئات من السجناء والمعتقلين السياسيين، وقد أعلن مستشارو روحاني أن الإفراج عن هؤلاء السجناء جاء بناء على اقتراح من الرئيس روحاني، لكن سواء المقترح أو الإفراج لم يشمل أياً من المعتقلين والسجناء السنة أو العرب الأحوازيين، علماً أن هناك أكثر من مائة محكوم بالإعدام من أهل السنة من أكراد وبلوش وعرب قد صادق مجلس القضاء الأعلى على أحكامهم وبعضهم قد تم عزلهم عن سائر السجناء تمهيداً لتنفيذ الأحكام بحقهم، علماً أن من بين هؤلاء المحكومين طلبة علم شرعي ودعاة وحفظة قرآن مشهورين في إيران.. ورغم المناشدات التي قدمها أهالي المحكومين والمناشدات التي تقدم بها زعيم أهل السنة في إيران الشيخ عبد الحميد إسماعيل زهي إلى مرشد الثورة علي خامنئي ورئيس الجمهورية حسن روحاني ورئيس السلطة القضائية صادق لاريجاني وغيرهم من المراجع والمسؤولين في النظام الإيراني؛ إلا أن السلطات الإيرانية لم تعتنِ بهذه النداءات والمناشدات المطالبة بوقف الإعدامات بحق أبناء السنة، بل إن هذه السلطات زادت من وتيرة أحكام الإعدام وتنفيذها بحق عديد من أبناء السنة على مختلف قومياتهم، وذلك في ظل سكوت الرئيس المسمى المعتدل حسن روحاني، وفي ظل سكوت عربي ودولي مخجل.

لقد انتهجت الدولة الإيرانية عبر أنظمتها وحكوماتها المتعاقبة، استخدام الإعدامات وسيلة لإسكات أصوات الشعوب والقوميات المطالبة بحقوقها المشروعة، لكنها فشلت في ذلك.. فهل يستمر الرئيس حسن روحاني على نهج أسلافه في تطبيق سياسة الإعدامات بحق أهل السنة وعرب الأحواز، أم سيكون أفضل منهم؟

الحراك الجنوبي وحركة الحوثي..

تقارب المصالح وتباعد الأيديولوجيات

■ أحمد الصباحي
mosleh484@gmail.com
@AlsabahiAhmed

بعد أن أفاقت اليمن من صحوتها في ظل نظام الحكم السابق الذي أثخن في صنع المشكلات وابتكار الحروب في كل أرجاء اليمن السعيد - الذي لم يعد سعيداً -؛ خرج الرئيس السابق من الحكم بعد ثورة شعبية شبابية كادت أن تدخل البلد في عمق الهاوية لولا تدخل المبادرة الخليجية التي فتحت الباب واسعاً للدخول في حوار شعبي شامل يكاد يصل إلى مرحلته النهائية.

ويرى كثير أن المشكلات التي يتحاور حولها أعضاء مؤتمر الحوار الوطني، كانت نتائج حتمية للسياسات التي اتخذها النظام السابق، الذي ولّد مشكلة في الجنوب (الحراك الجنوبي)، وأخرى في الشمال (التمرد الحوثي).

وتكمن الكارثة في أن تلك المشاكل والحروب المفتعلة أصبحت المهدد الأول لأمن واستقرار اليمن والمنطقة بأكملها، حيث أصبح الحراك الجنوبي يشكل خطراً كبيراً في الجنوب نتيجة مطالباته الواسعة بفصل جنوب اليمن عن شماله، وأصبحت حركة التمرد الحوثية في الشمال تشكل عبئاً كبيراً على صنعاء، بسبب الحروب التي تشنها في مناطق متفرقة من محافظات الشمال (الجوف، حجة، عمران، وإب)، والأكثر خطورة أن تجتمع المشاكل تحت سقف ومظلة واحدة عندما تتقارب وتتحد الأهداف والمصالح المشتركة.

علاقة وثيقة وتنسيق مشترك

رغـم نفي الحراك الجنوبي علاقته مع جماعـة الحوثي (أنصار الله)[1]، وحجـم الدعم الذي يتلقونه من إيران، وواحدية الأهداف التي يريد الطرفان السـعي لتحقيقها، والوضع العام الشائك الذي يريدون إيصال اليمن إليه؛ إلا أن مجريات الواقع وتتابع الأحداث تثبت بما لا يدع مجالاً للشـك صحة هذه العلاقة الوثيقة بين الطرفين، بـل إن تصريحات كثيرة لقيادات من الطرفين وحقائق ووثائق تثبت هذه الفرضية.

على الجانب الحراكي نشـرت كثير من وسائل الإعلام تصريحات كثيرة تؤكد حُسن العلاقة بين الحراك الجنوبي والحوثيين، فقد كشف القيادي البارز في الحراك الجنوبي، حسـن زيد بن يحيى، عن زيارات متبادلة لناشطين في الحـراك الجنوبي وقيادات حركة الحوثي، معتبـراً أن الحوثيين رفاق نضال مشـترك، وأن تلك الزيـارات تعبير صادق على عمـق العلاقة النضالية بين الطرفين، مؤكداً أن هناك تحالفاً استراتيجياً بين الحوثيين والحراك الجنوبي، وأنه ذاهب نحو التطور[2].

بـل إن ممثل جماعة الحوثي في الحوار الوطني، عبدالكريم جدبان، أكد وجود علاقة بين جماعة الحوثي والحراك الجنوبي، حيث وصفها بـ «الجيدة»، وأنها تجمع طرفين «تعرضا للظلم من قبل السلطة».

ويقول جدبان في تصريح نشـره موقع «الجزيرة نـت»: تربطنا علاقات طيبة بكل المكونات السياسية والأحزاب في الحوار وخارجه[3].

أما القيادي في الحراك الجنوبي، محمد مسـعد العقلة، فقد أكد وجود علاقـة جيدة لفصيل علي سـالم البيض في الحـراك الجنوبي مع جماعة الحوثي، ونقـل موقع «الجزيرة نت» عن العقلة قوله: «إن هناك شـراكة بين الطرفين للعمل المشـترك على مسـتوى السـاحة اليمنية عموماً وليس في الجنوب فقط»[4].

كثيـرة هي التصريحات المتبادلة من قادة وأنصـار الحراك الجنوبي وحركة الحوثي التي تثبت حجم العلاقة الوطيدة والأهداف المشتركة التي اجتمعت عليها الحركتـان، ولا يخفي ذلك حضور جموع كبيـرة من الحراك الجنوبي إلى صعدة لتشييع رفات زعيم الحوثيين حسين الحوثي في يونيو الماضي، ورفع علم الانفصال في ساحة الصلاة على زعيم الحوثيين وفي طرقات محافظة صعدة[5].

(١) المسمى الجديد لحركة الحوثي، والذي يبدو أنه تقليد ومحاكاة لمسمى حزب الله اللبناني.

(٢) حوار مع القيادي في الحراك الجنوبي حسن زيد بن يحيى في صحيفة أخبار عدن، في تاريخ ٢٠١٢/١/٢٨م.

(٣) الجزيرة نت: حقيقة العلاقة بين الحوثيين والحراك الجنوبي
http://www.aljazeera.net/news/pages/412290006-db64-e3a-8ef5-3f1be184b187.

(٤) الجزيرة نت، مصدر سابق.

(٥) للمزيد: المنتصف نت، الحراك والحوثي يقاطعون ويعتصمون في «موفمبيك»
http://www.almontasaf.net/NewsDetailsPage.aspx?NewsID=35fb91bb-7236-4ad391-ba-62005fedab58.html.

سباق الانبطاح لإيران

قد يكـون الولاء والانبطاح لإيـران هو المهمة الوحيدة التي يتسابق عليها القيادات من جماعتي الحوثي والحراك الجنوبي.

ولعل إيران هي التي قاربـت الرؤى والمفاهيم بين حركة الحوثي والحراك الجنوبي، فلم تشـهد العلاقات تحسناً بين الطرفين إلا منذ أن أصبحت إيران هي الموجه العام لهما.

بالنسبة لحركة الحوثي فإن علاقتها بإيران كانت منذ الأيام الأولى لانطلاقها، حيث تم تصدير مفهوم الثورة الإيرانية إلى اليمن تحت يافطة حركة الشباب المؤمن التي تحوّلت إلى حركة قتالية مسلحة واجهت الدولة في ست حروب انتهت بسيطرة الجماعة على محافظة صعدة.

لكن علاقة الحراك الجنوبـي بإيران لم تأتِ إلا فـي وقت متأخر بعد أن نفـدت الأدوات التي اسـتخدمها في توصيل رسالته والمطالبة بحقوقه، فاسـتغلت إيران هذه المطالـب الحقوقية ودفعت بإجراء لقاءات وتشـاورات مع قيـادات حراكية، وقدمت لهم المساندة والدعم في مجالات التدريب والتأهيل والمال والسلاح.

ويشـير كثير من المحللين إلى أن حركة الحوثي قد تكون هي الوسيط الأمثل الذي جمع بين الحراك الجنوبي بإيران، حتى وصل بها الأمر إلى استضافة علي سـالم البيـض، زعيم الحراك، فـي بيروت، الواقعة تحت القبضة القوية لحزب الله.

ويؤكـد القيادي في الحراك الجنوبي، قاسـم عسـكر، «إن بعض الشـباب في الحراك الجنوبي ذهبوا إلى إيران للتدريب، وإن بعض القادة البارزين في الحراك ذهبوا إلى الحوثيين من أجل السلاح».

وبحسـب عسـكر، فإن حزب الله قدم بعض التمويـل لقيادة الحراك الجنوبـي، وحصلوا على التدريب الإعلامي للقنـاة التلفزيونية التابعة لهم (عدن لايف)، والتي تبث في اليمن من بيروت[6].

(٦) المصدر أونلاين: تقرير أمريكي يحقق في علاقة طهران بالحراك الجنوبي والحوثيين وخفايا الدعم الإيراني:
http://almasdaronline.com/article/47509.

والذي يجمع بين الطرفين أنهما أرسلا مئات من الشباب إلى إيران للتدريب، وحصول الجماعتين على أسلحة متطورة من إيران، حيث كشف ضباط يمنيون عن أن أسلحة أكثر تطوراً وصلت إلى أيادي الحوثيين، مثل القذائف التي تعمل بالدفع الصاروخي، وأن جزءاً من تلك الأسلحة كان ذاهباً إلى أيادي الحراك الجنوبي.

وليس مستبعداً الحديث عن علاقة إيران القوية بالتيار الحوثي والحراك الجنوبي، فإن إيران تسعى جاهدة للبحث عن حلفاء أقوياء يعملون بالقرب من أحد أهم الممرات المائية الاستراتيجية في العالم لشحنات النفط.

بل إن إيران تقوم بالدعم الكبير للحراك الجنوبي وحركة الحوثي في الشمال من أجل توسيع نفوذها في المنطقة التي أعادت تشكّلها على مدى عامين من انتفاضات الربيع العربي.

وفيما إذا وصلت العلاقات الإيرانية مع الميليشيات اليمنية إلى نقطة تطور، فإن ذلك سيكسبها نقطة ضغط استراتيجية، كتلك التي لديها مع حزب الله اللبناني، الحليف القوي في لبنان.

المظلومية شعار التزييف

تحت سقف المظلومية تمارس حركة الحوثي القتل والتشريد بحق المواطنين في صعدة والمناطق التي تسيطر عليها، وتحت سقف المظلومية كذلك يمارس أنصار الحراك الجنوبي التنكيل بأبناء الشمال من العمال والتجار وأصحاب المحال تحت ذريعة أن أبناء الشمال يحتلون الجنوب.

المظلومية أصبحت شعاراً ولافتة للقتل والتشريد والتنكيل بكل من يعادي أو ينتقد العنف الحوثي في الشمال، والتطرف الحراكي في الجنوب.

وأصبحت المظلومية عنواناً بارزاً للتصريحات التي يطلقها قيادات الجماعتين، إذ يقول عبدالكريم جدبان في تصريح سابق لموقع «الجزيرة نت»: «إن علاقة الحراك الجنوبي بجماعة الحوثي جيدة، وتقوى علاقتنا بالحراك الجنوبي بحكم الاشتراك في الظلم»[1].

وهو الأمر الذي يكرره الحراك الجنوبي، إذ يرددون أن الشمال احتل الجنوب واستحوذ على الخيرات والثروات النفطية، ويقول أحمد البحري، القيادي في حزب الحق، إن النظام اليمني السابق أجبر الحوثيين والحراك الجنوبي على حمل السلاح والتوجه إلى إيران كسند آخر، عندما تجاهلت الحكومة مظالمهم[2].

موقف موحَّد من سورية

من الطبيعي جداً أن تتوحّد رؤى ومواقف الحراك الجنوبي وحركة الحوثي مما يحصل في سورية على دعم ومساندة نظام بشار الأسد، طالما إيران هي العامل الأوحد في توجيه الطرفين.

هناك موقف موحد للحراك الجنوبي والحوثي في الرفض المطلق لأي مطالب بإسقاط نظام بشار الأسد، بل خرجت مسيرات كبيرة في محافظات شمالية نظمها الحوثيون، وفي محافظات جنوبية نظمها الحراك الجنوبي؛ رُفع فيها شعار نظام بشار الأسد ورددت هتافات تساند وتشجع النظام السوري على مواصلة دحر ما وصفته بـ «الإرهابيين».

ولا يقتصر التوافق على الشأن السوري، بل إن الطرفين كان لهما موقف موحد ومتشابه في معاداة الإخوان المسلمين في مصر، والوقوف مع الانقلاب العسكري، وبرزت تصريحات تؤيد ما قام به العسكر في مصر.

علاقة داخلية لأهداف خارجية

ما يثير الاستغراب هو البون الشاسع والكبير بين الفكر الحوثي وفكر مكونات الحراك الجنوبي، حيث إن أغلب مكونات الحراك الجنوبي تتشكل أساساً من السنة، إلا أنها تجد قضية مشتركة لها مع حركة الحوثي الشيعية في شمال اليمن، من أجل معارضة الحكومة اليمنية، والعداء للإخوان المسلمين الذين يشاركون في الحكم حالياً.

بل الأعجب من ذلك هو أن الفكر الإمامي المتمثل بالحوثيين، يلتقي مع نظيره الماركسي المتمثل في بعض فصائل الحراك الجنوبي، على صعيد تحقيق المصالح الفئوية التي يسعى إليها من تبقى من سلاطين ومشيخات الجنوب، وأتباع المذهب الزيدي في الشمال.

ولأن التخريب ليس له دين، فإن التفاهمات ستحدث بين الحراك الجنوبي والحركة الحوثية من أجل مواصلة التدمير لليمن، وصولاً إلى تحقيق أهدافهما في فصل جنوب اليمن لصالح الحراك الجنوبي، وإعطاء الحوثي جزءاً كبيراً من الشمال كإقليم خاص به.

وطالما إيران ممسكة بطرفي الدعم والمساندة، فإنها لن تكل عن التوفيق بين الجماعتين من أجل أن تحقق المطالب التي تتطلع إليها في شمال اليمن وجنوبه؛ التوسع والنفوذ في الجنوب لأهمية الممرات المائية، والتوسع في الشمال من أجل زرع نفوذهم في حدود المملكة العربية السعودية وسحب الغطاء على المملكة في المناطق الشرقية للسعودية حيث أغلب السكان من الطائفة الشيعية.

---

(١) الجزيرة نت: مصدر سابق.

(٢) المصدر أونلاين: مصدر سابق.

سلسلة رحلة الأيام

د. إيهاب عويص

متوفرة في مكتبة التدمرية
فرع الرياض - بريدة

ملحمة روائية جمع فيها المؤلف عناصر
التشويق والإثارة والحقيقة العلمية

التوزيع والنشر

مؤسسة دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

الرياض: - هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨
تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس:
٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات:
٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ -
٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
مكة وجدة والمدينة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠
المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩
منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

رواية
Rewayah

دار رواية للنشر
لندن
104 Queensway
London W2 2RR
UK
E-Mail: info@rewayah.net
www. rewayah.net

حصار غزة

يدخل عامه السادس

■ أحمد أبو دقة
ahmad_dakkah@hotmail.com
adakkah

يتساءل كثير من أبناء قطاع غزة المصطفِّين في طوابير طويلة على بوابة معبر رفح جنوبي القطاع، ماذا فعلوا لمصر كي تشارك في الحصار المستمر على القطاع منذ أكثر من خمسة أعوام؟!.. فيهم المريض والطالب والمغترب الذي خرج باحثاً عن رزقه في بلاد الله الواسعة، ينتظرون منذ ساعات الفجر الأولى حتى تقوم السلطات المصرية بالتواصل مع الجانب الفلسطيني لإدخال أولى الحافلات، فيبدأ الترقب والأمل، لكن سرعان ما تكسره خيبة أمل بعد أن يغلق المعبر بشكل فجائي بسبب تعطل الحواسيب أو سوء الوضع الأمني، ويعود الناس أدراجهم بسبب ذرائع واهية تختلقها السلطات المصرية بشكل شبه يومي.. بعض المرضى الذين يتلقون علاجهم في الخارج تتوفاهم المنية على بوابة معبر رفح، وكان آخر ضحايا هذه المأساة، بحسب ما أورد موقع وزارة الداخلية الفلسطينية، رضيع توفي بداية الشهر الماضي بعد يوم واحد من ولادته، حيث أنجبته أمه القادمة من الجزائر لزيارة أهلها على بوابة المعبر من الجهة المصرية بعد أن رفضت السلطات المصرية إدخالها إلى قطاع غزة، وبحسب الداخلية الفلسطينية فإن سوء العناية الطبية بالطفل لدى الجانب المصري أدى إلى وفاته.

وتجدر هنا الإشـــارة إلى أن الطاقة التشغيلية لمعبر رفح تصل إلى ألفي مســـافر في الحـــالات الطبيعية خلال اليوم الواحد، لكن في الحالة الراهنة فإن خالد الشاعر، مدير عام معبـــر رفح البري، يبيّن في بيان صحفي أنه خلال الأســـبوع الأخير قبل عطلة عيد الأضحى وخلال "خمسة أيام من العمل الاســـتثنائي في معبر رفح، تمكنت ٢٥ حافلة من الدخول إلى الجانب المصري تحمل ما يقارب ١٨٤٨ مسافراً، من بينهم ١١ حافلة تحمل ٤٠٠ حاج". ولفت الشـــاعر إلى أنه خلال نفس المدة وصل إلى قطاع غزة ٤٣٢ مسافراً.

قبـــل ٥ ســـنوات كان يعمل في قطاع غزة ســـبعة معابر حدودية أغلقتها الحكومة الصهيونية لتشـــديد الحصار على القطـــاع وانتزاع مواقف سياســـية من حركـــة حماس التي تسلَّمت الحكم فيه، وبقي معبر رفح مرهوناً بالمواقف المصرية المتأرجحة اتجاه قضية الشعب الفلسطيني، ففي عهد الرئيس الســـابق محمد حســـني مبارك كان المعبـــر مغلقاً في معظم الأوقات، ما جعل الفلســـطينيين يقومون بحفر أنفاق لإدخال المـــواد الغذائية والمحروقات لتعويض النقص الناجم بســـبب الحصار الصهيوني، ونتج عن ذلك حالة تجارية نشطة استفاد منها كلا الجانبين على الحدود المصرية – الفلســـطينية، لكن بعد فوز الرئيس محمد مرســـي في الانتخابات في يونيو عام ٢٠١١، طرأ تحسن على أداء المعبر، وكانت السلطات المصرية تفتح المعبر ٥ أيام في الأســـبوع لمدة تصل إلى ثماني ساعات، أما عقب إســـقاط حكم الرئيس محمد مرسي في الثالث من يوليو بواســـطة الجيش، فقد أغلق معبر رفح وعادت الأوضاع إلى مـــا كانت عليه في عهد مبارك، لكن ما زاد من ســـوئها الحملة التي شـــنتها السلطات المصرية لإغلاق الأنفاق، حيث صرح وزيـــر الاقتصاد في حكومة غزة، عـــلاء الرفاتي، بأن قيام الجيش المصري بإغلاق الأنفاق بين سيناء والقطاع ألحق بالناتج المحلي في غزة خســـائر تقـــدر بأكثر من ٢٣٠ مليون دولار شـــهرياً. كما أدت العملية المصرية إلى توقف عمل أكثر من ألف منشأة اقتصادية في القطاع تعتمد على المواد الخام التي يتم تهريبها عبر الأنفاق.

وأبقت الحكومة الصهيونية معبر كرم أبو سالم بين مصر وغزة والكيـــان الصهيوني مفتوحاً، لكنـــه مرهون بالأحداث الأمنية في المنطقة، ويســـمح من خلاله بدخول ٣٠٠ شاحنة يوميـــاً محملة بمواد توافق على إدخالها الحكومة الصهيونية. وتقدر إحصائيات نشرتها مراكز بحثية فلسطينية أن الحصار تســـبَّب في انعدام الأمن الغذائي لأكثر من ٥٧٪ من ســـكان قطاع غزة، وكذلك ارتفاع نســـبة البطالـــة لتصل في الآونة الأخيرة إلى ٤٣٪ من إجمالي قوة العمل المعروضة في ســـوق العمل.

إن عمليات الحصار والإغلاق المســـتمرة في القطاع أدت إلى تراجع متوســـط دخل الفرد إلى أدنى مستوياته منذ عام ٢٠٠٠، حيث وصل إلـــى ١٨٠٠ دولار، ثم تراجع إلى أقل من ١٢٠٠ دولار خلال العام المنصرم ٢٠١٢، وثمة تقديرات بتراجع دخل الفرد في القطاع إلى أقل من ألف دولار في نهاية العام الحالي ٢٠١٣.

بـــدوره، قال وزير الصحة الدكتور مفيـــد المخللاتي: "إن رصيد الأدوية والمستهلكات الطبية لدى وزارته يتناقص جراء إغلاق معبر رفح"، مشـــيراً إلى أن ٣٠٪ مـــن رصيد الأدوية مقطوع تماماً.

وأشار إلى أن سبعة مراكز رعاية أولية توقفت فيها حركة البناء بشـــكل كامل، إضافة إلى خمس مستشفيات تقام فيها منشـــآت ضخمة، من بينها مستشفى الشـــيخ حمد للتأهيل والأطراف الصناعية ومركز الجراحات التخصصي في مجمع الشفاء الطبي.

وأوضح أن أكثر من ١٠٠٠ مريض كان يتم تحويلهم بشكل شهري من خلال معبر رفح، من بينهم ٣٠٠ بتحويلة حكومية، و٧٠٠ على حســـابهم الخاص، يعانون أمراضاً يصعب التعامل معهـــا، مثل أمـــراض الأورام الســـرطانية، لا يزال مصيرهم مرهوناً بفتح المعبر.

ولا يزال ســـكان القطاع يعانون أزمة خانقة في مســـألة انقطـــاع الكهرباء، حيث تقوم ســـلطة الطاقة بنشـــر جدول أسبوعي لانقطاع الكهرباء في مختلف مدن القطاع يصل إلى ١٢ ساعة، وتبرر الشـــركة ذلك بقولها إن كميات الوقود التي تدخل القطاع من الجانب الصهيوني لا تكفي، إضافة إلى عدم قدرتها علـــى توفير قطع غيار لمحطات الكهرباء التي تتعطل، بسبب الحصار.

ومنذ يوليو الماضي لم يستقبل قطاع غزة أي وفود تضامنية بسبب إغلاق معبر رفح، وفي تصريح صحفي نشره علاء البطة، نائب رئيس اللجنة الحكومية لكسر الحصار، أكد أن استمرار إغلاق السلطات المصرية معبر رفح البري، المنفذ الوحيد لقطاع غزة للعالم الخارجي، قد أدى إلى منع الوفود المتضامنة من الدخول لقطاع غزة، وحال دون أداء مهمتها الإنسانية تجاه القضية الفلسطينية، مضيفا أنه خلال شهر سبتمبر لم يدخل لقطاع غزة أي وفود، حيث كان من المقرر دخول قافلة أميال من الابتسامات (٢٣)، إلا أن السلطات المصرية منعتها من الدخول، كما منعت إدخالها المساعدات التي كانت تصطحبها معها إلى القطاع.

ثبات المواقف

وفي ذكرى صفقة "وفاء الأحرار" التي جرت برعاية مصرية العام الماضي، وأطلق بموجبها سراح المئات من الأسرى الفلسطينيين مقابل إطلاق حركة حماس سراح الجندي الصهيوني "جلعاد شاليط"؛ ألقى رئيس الحكومة الفلسطينية إسماعيل هنية كلمة أجاب فيها عن كثير من الأسئلة المتعلقة بمستقبل حركة "حماس" السياسي في ظل المتغيرات الإقليمية، خاصة الأحداث في مصر، وأكد هنية أن حركته محافظة على موقفها المبدئي من احترامها لتوجهات ومسارات الشعوب العربية في ربيعها، نافياً في الوقت ذاته ما أشيع مؤخراً عن خلافات داخلية حول مواقف الحركة وسياساتها وأماكن وجود قادتها.

وعلى صعيد المصالحة الفلسطينية، جدد هنية دعوته رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس، للبدء بتشكيل حكومة التوافق الوطني، إلى جانب تأكيده موقف حماس من الانتخابات.

وتعقيباً على كلمة هنية، قال طلال عوكل، المحلل السياسي الفلسطيني، إن هنية أكد مواقف "حماس" الثابتة بشأن المقاومة والقدس المحتلة وعدم التدخل في الشؤون الإقليمية.

وأوضح أن النقطة الأهم في هذا الخطاب هي إعادة صياغة الخطاب الرئيس لحركة حماس على اعتبار أنها حركة تحرر وطني إسلامي فلسطيني، وأنها ما زالت متمسكة بخيار المقاومة، وليست معنية بالتدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة عربية.

وأضاف أن رئيس الوزراء في غزة أكد أنه لا تغيّر بأن الوضع الفلسطيني من أهم الأولويات بالنسبة لحماس، وأنه يترجم ذلك عملياً بالدعوة لانتفاضة شعبية، وتفعيل المقاومة بالضفة، وما يمكن اعتباره أنه تنبَّأ بانتفاضة شعبية عربية وإسلامية من أجل القدس وما يجري بحقها من اعتداءات صهيونية.

ووفقاً لعوكل، فإن "حديث هنية عن الأسرى والقدس ووقف المفاوضات؛ كل ذلك يحمل في طيّاته خطاب المقاومة الوطنية، وأن هدف حماس هو تفعيل تلك المقاومة وتوطيد علاقاتها العربية وإصلاحها".

جديدنا

صدر حديثاً

جديد ..

جديد ..

جديد ..

جديد ..

جديد ..

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مرصد الأخبار

عمرو عبد البديع(*)
amro@albayan.co.uk

اكتشاف نفق يمتد من غزة إلى الأراضي المحتلة

قال جيش الاحتلال الصهيوني إنه اكتشف نفقاً يمتد عبر ١,٧ كيلو متر من قطاع غزة إلى الأراضي الإسرائيلية، ويمتد النفق بين أحد المنازل في القطاع وكيبوتس عين هاشلوشا، وتخشى السلطات الإسرائيلية من أن مسلحين كانوا يريدون دخول إسرائيل عبره لتنفيذ عمليات.

وردت إسرائيل على اكتشاف النفق بوقف إدخال مواد البناء إلى قطاع غزة، وكانت قد رفعت القيود عن تجارة القطاع الشهر الماضي. واتهمت حماس إسرائيل بـ «المبالغة»، وقال سامي أبو زهري، المتحدث باسم حركة حماس، في اتصال مع «بي بي سي»: «إن إعلان الاحتلال الإسرائيلي اكتشاف نفق على أطراف القطاع هو محاولة لتضخيم الأمور وتبرير الحصار والعدوان الإسرائيلي المستمر على قطاع غزة».

(بي بي سي: ٢٠١٣/١٠/١٣)

قانون التظاهر يمهِّد لدماء جديدة في مصر

قالت منظمة العفو الدولية إن مشروع قانون التظاهر المقترح يمهّد الطريق لما وصفته بسفك دماء جديدة في مصر. وحذرت المنظمة من أنه في حال تم التوقيع على مشروع القانون من الرئيس المؤقت، عدلي منصور، فإنه سيقيد بصورة تعسفية الحق في حرية التجمع السلمي.

وأضافت أن مشروع القانون سيطلق العنان لقوات الأمن في استخدام القوة المفرطة والمميتة ضد المتظاهرين السلميين، ويبيح التعامل معهم وكأنهم مجرمون.

(مفكرة الإسلام: ٢٠١٣/١٠/١٩)

منتج فيلم مسيء للرسول يؤدي الحج

قال الهولندي أرنولد فاندرون، منتج الفيلم المسيء للرسول محمد ﷺ، الذي يؤدي فريضة الحج هذه الأيام؛ إن دموعه لم تتوقف منذ وصوله لمكة، وإنه يعيش الآن أجمل اللحظات.

وأكد فاندرون أنه سينتج فيلماً آخر يعكس خلاله أخلاق «سيد البشر»، والذي سيحاول من خلاله الاعتذار عملياً عن فيلمه المسيء قبل دخوله الإسلام.

(عكاظ: ٢٠١٣/١٠/١٩)

إحراق مسجد في بولندا بسبب أضاحي العيد

شبَّ حريق في مسجد مدينة غدانسك في شمال بولندا. في حين اتهم مفتي البلاد، توماس ميسكويتش، جمعيات الدفاع عن الحيوانات بالوقوف وراءه، على خلفية ذبح أضاحي العيد.

وذكرت وسائل إعلام بولندية أن حريقاً شبَّ في مسجد غدانسك، ما أدى إلى تضرر أبوابه وأجزاء من قبته. وعلق ميسكويتش على الحادثة معرباً عن ثقته الكاملة بأن «الحريق هو عمل انتقامي على ما جرى أمس في منطقة بودلاسي»، في إشارة منه إلى ذبح أضحية بمناسبة عيد الأضحى.

(الإسلام اليوم: ٢٠١٣/١٠/١٦)

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

راهبة أمريكية تقتل وليدها تجنباً للفضيحة!

مثلت راهبة كاثوليكية متدربة في دير بالعاصمة الأمريكية واشنطن، أمام القضاء بتهمة قتل وليدها. وصرح مكتب الادعاء العام بأن القاضي أمر بتوقيف الراهبة سوسفينا أموا دون إمكانية الإفراج عنها بكفالة. ووجهت للراهبة المتدربة البالغة من العمر ٢٦ عاماً، تهمة القتل العمد، وذلك لخنقها وليدها حتى الموت. وقالت الراهبة للشرطة إنها لم تحط إدارة الدير علماً بممارستها للجنس في السابق، وخشيت أن تسمع الراهبات الأخريات بكاء الطفل الوليد.

(بي بي سي: ٢٠١٣/١٠/١٩)

القناصة في سورية يستهدفون الحوامل والأجنة!

نقلت صحيفة ذا تلغراف عن جراح بريطاني قوله إن القناصة المنتمين إلى الجيش السوري المؤيد لبشار الأسد، يستهدفون النساء الحوامل وأجنتهن، وذلك ضمن لعبة «استهداف» مقلقة للغاية. وقال الجراح، الذي كان يعمل متطوعاً في سورية، إن هناك عدة جوائز يحصل عليها الفائزون في هذه اللعبة، منها علب السجائر، في حال صوبوا على أكثر من هدف في الضحية الواحدة. ويستذكر ديفيد نوت دخول ست نساء حوامل أصبن بطلقات القناصة في أحد الأيام، وفي يوم آخر دخلت سيدتان تحملان طفلين في الأشهر الأخيرة، لكنهما ميتان، إذ أصيب أحدهما بطلقة في المخ.

(سي إن إن: ٢٠١٣/١٠/١٩)

إسرائيل تحرّض الغزيين على «حماس»!

تلقى عشرات المواطنين في قطاع غزة رسائل صوتية مسجلة من جيش الاحتلال الإسرائيلي يحذرهم فيها من التعامل مع حركة حماس. وقال المتحدث باسم وزارة الداخلية في حكومة حماس، إسلام شهوان، إن الرسائل الإسرائيلية «هي محاولات يائسة من أجهزة الأمن الإسرائيلي للتشويش وزرع البلبلة في الجبهة الداخلية، وهي محاولة من أجهزة استخبارات الاحتلال للتغطية على فشلها الذي منيت به بعد اكتشاف النفق وتغلب المقاومة عليها.

وجاء في الرسالة: «إلى سكان قطاع غزة، جيش الدفاع يحذركم من الانصياع لأوامر حماس الإرهابية والاقتراب منها، واعلموا أن حركة حماس تنفق ملايين الدولارات على الأنفاق التي تؤدي إلى أعمال عدائية وإرهابية على دولة إسرائيل.. ابتعدوا عنها، واعلموا أن هذه الأموال من حقكم وكان يجب أن تنفق في مشاريع البنية التحتية والتعليم والصحة.. هذه الأموال من حق سكان قطاع غزة الأبرياء العزل الذين تقودهم حماس إلى المجهول.. قيادة جيش الدفاع الإسرائيلي».

(السفير: ٢٠١٣/١٠/١٩)

أصدر مركز كارنيجي للسلام الدولي تقريراً عن مسارات جماعة الإخوان بعد الانقلاب، وطرح سيناريوهات ثلاثة، وهي: تسوية الخلافات والإدماج، أو العودة إلى العنف المستدام واسع النطاق، أو استمرار الاحتجاجات ومحاولة نزع شرعية النظام.

سيناريو التسوية: المساومة بهدف الاحتواء والإدماج

ينطوي أول السيناريوهات المحتملة على التوصّل إلى اتفاق بين جماعة الإخوان المسلمين والحكومة المصرية المؤقتة، من شأنه أن يدمج التنظيم في العملية السياسية الجديدة، وهذا من شأنه الإبقاء على جماعة الإخوان كلاعب سياسي في الحياة السياسية المصرية، ويترك أصولها المالية ورأسمالها الاجتماعي سليماً نسبياً.. ولكي يحدث هذا، يجب الاعتراف بالهزيمة السياسية وإلغاء أنشطتها الاحتجاجية. في المقابل، تعمد الحكومة إلى وقف عمليات القمع التي تمارسها بحق الجماعة، وتفرج عن سجناء الإخوان، وترفع القيود المفروضة على أصولهم، وتسمح بإعادة فتح وسائل الإعلام الإسلامية، كما سيسمح لجماعة الإخوان بالمشاركة في العملية السياسية، بما في ذلك الانتخابات البرلمانية والرئاسية الجديدة.

سيناريو العنف: الجزائر (أو سورية) تبعث من جديد

يمكن أن تنزلق مصر أيضاً إلى أعمال عنف واسعة النطاق، أو كما يحب المحللون تسميته «السيناريو الجزائري». وتوضح سورية نسخة أخرى من هذا السيناريو: مواجهة عسكرية بين الجيش والمتمردين، الكثير منهم من الإسلاميين، ما أدّى إلى تفتيت الجيش على أسس طائفية وأيديولوجية.

من الصعب أن نبالغ في تصوير مشاعر الغضب بين الإسلاميين التي نجمت عن المجازر التي ارتكبها النظام لتفريق المتظاهرين المؤيدين لمرسي في اعتصام رابعة والاعتصام الآخر في ميدان النهضة في ١٤ أغسطس في القاهرة والجيزة، فضلاً عن القمع الدموي للمظاهرات والمسيرات المؤيدة لمرسي في وقت لاحق. فقد برّرت تلك الأفعال ادّعاءات الإسلاميين بأن الجهود الرامية إلى تأسيس عملية سياسية سلمية غير مجدية، وأن النظام المناهض للإسلاميين إقصائي ويحرص على إبادة الإسلاميين تماماً، وهو الوضع الذي يجعل العنف الخيار الوحيد الممكن، إضافة إلى ازدياد وتيرة العنف في سيناء، والتي يتم تقديمها بوصفها غير قابلة للسيطرة تقريباً بسبب التضاريس الجبلية المواتية، والدعم الشعبي للإسلاميين الجهاديين (والذي يقوم جزئياً على استياء سكان سيناء من عملية تهميشهم المستمرة من جانب الدولة المصرية).

ومع ذلك، فالعنف الذي يندلع على نطاق واسع يتطلّب عدداً كبيراً من الأشخاص المستعدين لتنفيذه وقاعدة اجتماعية مستعدّة لتقديم الدعم له. ومن الواضح أيضاً أن البلاد تفتقر إلى وجود دائرة اجتماعية كبيرة مؤيدة للعنف بما يكفي لتوفير المأوى والدعم للمقاتلين.

لذلك؛ فإن كلاً من سيناريو التسوية وسيناريو العنف ليس وارداً، وهذا يبقي نتيجة واحدة أخرى ممكنة، أي استمرار الوضع الراهن.

سيناريو استمرار الاحتجاجات: محاولة نزع شرعية الحكومة

في إطار هذا السيناريو الثالث، ترفض جماعة الإخوان المسلمين أي دعوات للتوصّل إلى تسوية سياسية وإدماج ولن تقدّم أي تنازلات. ستطرح الحركة مطالبها الخاصة عن الشرعية المغتصبة والطابع غير الشرعي للنظام الحالي. سيكون الهدف الرئيس لجماعة الإخوان المسلمين نزع الشرعية عن العملية السياسية الجديدة، التي ستصفها بأنها «إقصائية» و«غير تعددية» و«غير ديمقراطية»، والأهم من ذلك «معادية للإسلاميين»، بل وللإسلام نفسه، ومن ثم فالجماعة تلجأ هنا إلى تنظيم

أنشـــطة احتجاجية منتظمة، مثـــل المظاهرات الأسبوعية والمســـيرات والتجمّعات، وتدخل في حرب دعائية من خلال وسائل الإعلام وشبكات الإنترنـــت، بجانب أن جماعة الإخوان تعوّل على أنها كبيرة ومرئية جداً بحيث لا يمكن تجاهلها، ويشـــكّل جمهور أنصارها قوة لا يســـتهان بها، واســـتبعادهم ســـيكون مكلفاً للغاية ومستحيلاً مـــن الناحية العملية؛ ولـــذا يتعيّن على أي حياة سياســـية ديمقرطية جديدة في مصر استيعاب الإســـلاميين، إضافة إلى ذلك تجـــادل جماعة الإخوان في أن زعزعة اســـتقرار البلاد لأطول فترة ممكنة قد يحوّل ميزان القوى لصالحها.

لـــكل واحـــد مـــن الســـيناريوهات الثلاثة إيجابياته وســـلبياته وحدوده.. وتعتمد مســـألة مـــا إذا كانت جماعـــة الإخوان ستســـتمر في نهجها الحالـــي أو تتبنّى خيارات أخرى، خاصة سيناريو التســـوية؛ على عدة عوامل؛ فالأوضاع السياســـية والاقتصادية المحلية المتغيرة، وقدرة النظـــام المؤقت على تســـريع وتيـــرة العمليات السياســـية بطريقة ديمقراطية تســـتوعب كافة القـــوى السياســـية والاجتماعيـــة بالتوازي مع العمليـــات الأمنية، ونجـــاح خريطـــة الطريق الانتقالية، والأزمة السياسية الناشئة في البلاد؛ كلها عوامل ســـتؤثّر في النتيجة، وستكون قدرة جماعة الإخوان على الشروع في إجراء تحوّلات أيديولوجية وعقائدية وتنظيمية شاملة ضرورية لأي سياسة ديمقراطية يمكنها كسب ثقة الناس ومداواة جراح الفترة الســـابقة والمســـاهمة في خلق دولة ديمقراطية جديدة في مصر.

تغريدات

محمد عبدالله الوهيبي @mohammadalwh

المجوس قادمـون رغـم العقوبـات. تحتـل إيـران جـزراً إماراتيـة والعراق وسـورية ولبنـان، ونفوذها يتزايد فـي اليمن والبحرين. كيف سيكون حالها بعد رفع العقوبات؟

د. محمد يسري إبراهيم @DrMohamadYousri

فئة من الخرافيين يتزيون بزي العلماء يزينون الباطل ويشوهون الشرفاء في مقابل منصب أو جاه! ضرب الله لهم أخس مثل في القرآن!

محمد الأحمري @alahmarim

سـخَّروا مظاهرات مشـروعة ضد مرسي ليسـرقوا الديمقراطية وليعيـدوا عصابة مبارك، الآن يسـنّون قانوناً يمنع التظاهر ضد دمارهم.. لن يؤيدهم من له ذرة مروءة.

أحمد الصويان @Asowayan

مـن أعظـم دروس الحـج: تربيـة العبـد علـى الاستسـلام التـام والانقيـاد الخالـص لأمر الله ونهيـه، والحذر مـن الاعتراض أو التردد في الاستجابة والالتزام.

د. طه حامد الدليمي @tahadulaimi

الهويـة والقضيـة أمـران متلازمان لا غنى لأحدهمـا عن الآخر؛ فقضية بلا هوية هي تماماً كهوية بلا قضية.

عبدالعزيز الطريفي @abdulaziztarefe

الباطـل لا يهزم الحق، لكن يهزم أهله لأنهم لم يُحسـنوا وضعه، ولـو أصلحـوا أنفسـهم لقـام الحـق بهـم، لأن الراية لا تسـتقيم بعمودٍ أعوج.

د. عبد الكريم بكار @Drbakkar6h

حـين يعمـد فصيل جهـادي إلى قتـال فصيل جهـادي آخر فهذا يعنـي أنـه حوّل نفسـه إلى سـلطة حاكمة بأمرها، وسيُسـأل عن الأنفس التي أزهقها أمام الله تعالى.

كشف مسح أجرته منظمة «ووك فري» في ١٦٢ دولة، عن أن نحو ٣٠ مليون شخص على مستوى العالم يعانون أحد أشكال العبودية، وأن نصف هؤلاء يعيشون في الهند.

وقدر المسح عدد المستعبدين عند ٢٩,٨ مليون على مستوى العالم، وهو عدد يفوق أي أعداد وردت في محاولات أخرى لإحصاء من يخضعون للعبودية الحديثة، إذ تقول منظمة العمل الدولية إن هناك نحو ٢١ مليون شخص ممن هم ضحايا العمل القسري.

وفي المرتبة الثانية بعد الهند تأتي الصين بنحو ٢,٩ مليون من ضحايا العبودية، تليها باكستان بنحو ٢,١ مليون، ثم روسيا بواقع ٥١٦ ألفاً، تليها تايلاند وبها ٤٧٣ ألف مستعبد، ثم الكونغو الديمقراطية بنحو ٤٦٢ ألفاً، وميانمار بواقع ٣٨٤ ألفاً، تليها بنغلادش بنحو ٣٤٣ ألفاً.

ويصنف المؤشر الدول كذلك على أساس نسبة انتشار العبودية بين السكان، وبهذا المعيار تكون موريتانيا هي الأسوأ، إذ يعاني العبودية نحو ٤ في المائة من سكانها البالغ عددهم ٣,٨ مليون نسمة، لكن تقديرات منظمات أخرى تقدر النسبة بما يصل إلى ٢٠ في المائة.

(سكاي نيوز: ٢٠١٣/١٠/١٧)

قال بن إيمرسون، مقرر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب، إن باكستان أكدت أن نحو ٢٢٠٠ شخص قتلوا في هجمات طائرات بلا طيار خلال السنوات العشر الأخيرة، من بينهم ما لا يقل عن ٤٠٠ مدني، إضافة إلى ٢٠٠ ضحية آخرين اعتبروا «غير مقاتلين محتملين». (رويترز: ٢٠١٣/١٠/١٩)

مستوطنون يهود يقطعون ١٠٠ شجرة زيتون في نابلس خلال موسم قطاف الفلسطينيين لثمار الزيتون.

(فلسطين اليوم: ٢٠١٣/١٠/١٩)

قال ٦٢,٣٨٪ من إجمالي المشاركين في استطلاع للرأي أجرته قناة «روسيا اليوم»، إن مصر قد أصبحت أسوأ حالاً بعد عزل مرسي. يأتي الاستطلاع بمناسبة مرور مائة يوم على عزل الرئيس الشرعي المنتخب الدكتور محمد مرسي.

وكانت القناة قد طرحت سؤالاً على المتابعين عبر موقعها على الإنترنت، قالت فيه: هل أصبحت مصر أفضل حالاً بعد عزل مرسي؟ وأجاب ٣٧,٦٢٪ من المتابعين بأن حال مصر أصبح أفضل، بينما صوت ٦٢,٣٨٪ بأن حال مصر لم يصبح أفضل بعد عزل مرسي.

(بوابة الحرية والعدالة: ٢٠١٣/١٠/١٩)

بدأت المؤسسات الدولية تعطي أرقاماً مخيفة عن تكلفة «الربيع العربي» الذي طال سبع دول حتى الآن.

فقد أفرج البنك البريطاني الدولي عن دراسة أعدها قدَّرت تكلفة الربيع العربي بـ ٨٠٠ مليار دولار، تحملت خسارتها الكبرى سبع دول، هي: مصر، وسورية، وتونس، وليبيا، والبحرين، والأردن، ثم لبنان.

البنك البريطاني، صاحب الدراسة، أسس معطياتها على أن الناتج القومي العام لهذه الدول سيكون منخفضاً بنحو ٣٥ في المائة حتى نهاية السنة القادمة (٢٠١٤)، أي ما يوازي ٨٠٠ مليار دولار ستكون خسارة لاقتصاديات هذه الدول.

(هسبريس: ٢٠١٣/١٠/١٩)

أعلنت وزارة الخزانة الأمريكية أن الدين الأمريكي قفز فوق ١٧ تريليون دولار لأول مرة في التاريخ.

(مفكرة الإسلام: ٢٠١٣/١٠/١٩)

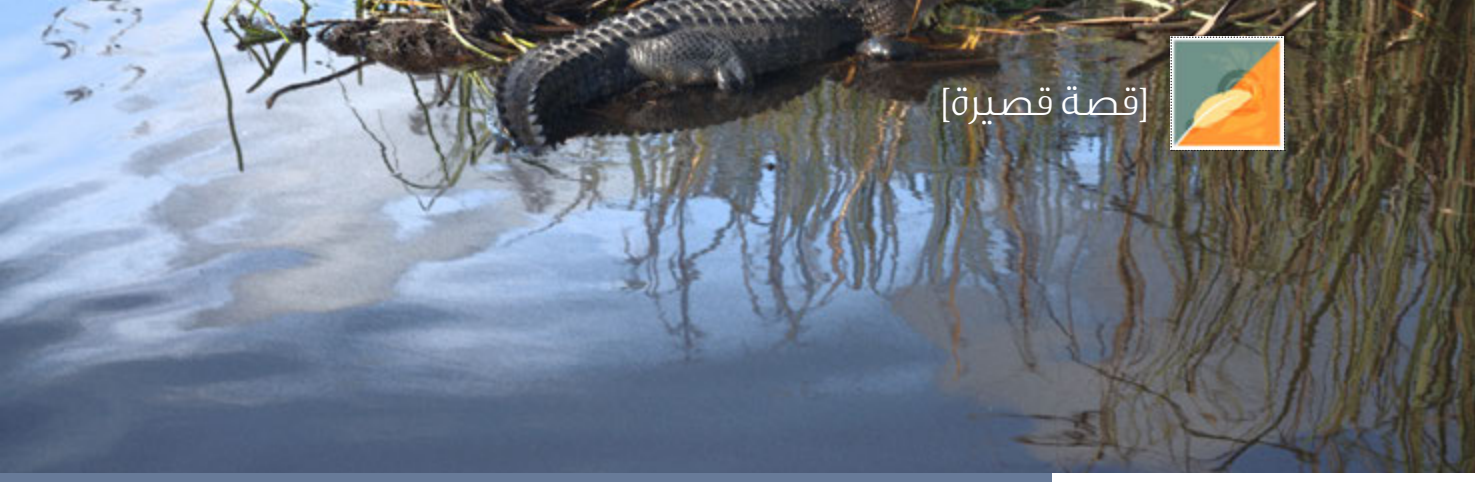

[قصة قصيرة]

التمساح والبحيـــــرة

■ حسين راتب أبو نبعة(*)

ذات صيف وبينما كان العشرات في رحلة اســتجمام على ضفاف البحيرة، بــدأت فصول حكاية يلفهــا الغموض، فقــد اختفــى بعــض المصطافين دون العثــور علــى آثارهم. كانــت البحيرة آمنــة ومتنفســاً للجميــع فــي عطلة نهاية الأســبوع أو الأعياد والمناســبات الاجتماعية والاحتفالات الشــعبية. لم يدر في خلد أحدهم أن تتحول البحيرة إلى كابوس يقضّ مضاجعهم. وللحفاظ علــى حيــاة المصطافين علــى جوانب البحيــرة، وضعت علامــات تحذيرية بمختلف اللغات تدعوهم لعدم الاقتراب من حواف البحيــرة.. ظهرت علامات تحذيرية بالفينيقية والآشورية والعربية واللغات الأوروبية، وثبتت اللوحات على جذوع الأشــجار المجــاورة حتى يراها العابرون.

ظلت هوية الفاعل والمســؤول عن الاختفاء غامضة، وبعد عمليات المراقبة والتمحيــص أميــط اللثام وانكشــف المســتور، فقد ظهر قبيــل الغروب في أحد أيام شــهر أيار كائن يشبه التنين، وقيل إنه يشبه عجل البحر؛ انقض فجأة على أحــد الأطفال الذين اقتربوا كثيراً من الشــاطئ، والتهم أحد أطرافه، ثم اختفى في الأعمــاق. هرع المصطافون ببقايا الطفل وســط عويل وذهول إلى أحد المشافي القريبة.

احتار القــوم، وبعد التداول في الهجوم أشار أحد المختصين إلى أن من قام بالهجوم هو أحد التماسيح الخطيرة، ولا بــد من التصدي لها من خلال خطة محكمة للمواجهة، سواء على الشــاطئ أو في عرض البحيرة.

لم يكن ثمــة إجماع على وســيلة محددة لمواجهة شراســة التمســاح.. اقترح أحدهم تقاســم البحيرة مع هذه التماســيح وحددوا خطاً وهمياً بحيث يتم الاتفــاق على عدم تجاوزه، وامتدت حبال خضراء وزرقــاء لتحديد المواقع. مرت أيــام هادئة تنفَّــس الناس فيها الصعداء. في الأســابيع التالية أشــار آخر إلى أن البحيرة أصبحت شــحيحة بأســماكها وأن التماسيح أصبحت أكثر نهماً في ظل انحســار الموارد.. لم يكن أمام القــوم إلا أن بادروا ببناء أحواض اصطناعية لتربية الأسماك لدرء الخطر القــادم! اجتهدوا في تربية الأســماك المفضّلة لدى التماسيح، وما إن ازدادت حجماً حتى بدؤوا بإلقائها في البحيرة. تعايشت التماسيح مع الأوضاع الجديدة وفتحت صفحة مــن العلاقات الودية. تدحرجت الســنون، وعضَّ القوم على جراحهم، غير أن التماســيح وفي ظل الظروف الجديدة لم تزدد إلا شــرهاً، وازدادت حركاتها في البحيرة، وأصبحت كالكلاب المســعورة، إلا أن شيئاً ما أثار فيهم الرعب من جديد، إذ بدأت تظهر عليهم بوادر أمراض جلدية لم يألفوها أبداً، فقد بدأت تظهر قشور تشبه إلى حد ما مرض الصدفية، وانتشــرت في أجســادهم كالنار في الهشــيم، جربوا كافــة الأدوية الشــعبية وراجعوا أرقى المشافي، لكن بلا جدوى.. عمَّ الارتباك والحيرة. في الأشهر التالية قال الرواة بأنــه ظهرت عليهم زعانف وخياشــيم وأصبحوا أقرب إلى الأسماك أشكالاً.. ثم بدأت جموعهم تزحف نحو البحيرة إلى حيث الموت كي تكون وجبة شــهية للتماسيح!

(*) مدرس لغة – كلية التربية – جامعة الملك عبد العزيز.

النفق في غزة يقض مضاجع الصهاينة

■ د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com
@adnanabuamer1

يشهد قطاع غزة نقاشات متعددة لإعلان الجيش الإسرائيلي يوم الخميس ٢٠١٣/١٠/١٠ اكتشاف نفق حفره الفلسطينيون شرق بلدة عبسان جنوبي القطاع إلى داخل إسرائيل، قرب كيبوتس «العين الثالثة». وعلم كاتب السطور خلال جولة قام بها قرب المنطقة التي اكتشف فيها النفق، من أوساط عسكرية فلسطينية؛ أن النفق تم حفره بعمق ٢٠ متراً، وطوله ٢,٥ كم، ودخل حدود إسرائيل مسافة ٣٠٠ متر، وهو مرتفع بما يكفي ليتمكّن رجل معتدل القامة من أن ينتصب واقفاً داخله بارتفاع ١٢٠ سم، وكان عريضاً بشكل ملحوظ، وتطلب إعداده وبناؤه ٨٠٠ طن من الأسمنت المسلح، وبلغت كلفته التقديرية ١٠ ملايين دولار.

كما عمل في حفر النفق ما يزيد على مائة عنصر، استغرق عملهم أكثر من عامين، إضافة لوجود شبكة اتصالات وكهرباء، وعثر فيه على بقايا زجاجات من اللبن والبسكويت والمواد الغذائية، تم تغليفها للبقاء فيه عدة أشهر.

وأضافت الأوساط العسكرية أن النفق الحالي يعدّ من أضخم المشاريع العسكرية خلال السنوات الأخيرة، وبمثابة جهد بعيد الأمد يراد منه أن يحقق نتائج عسكرية في التوقيت المناسب الذي تقرره الجهة التي تقف خلفه، ما يرجح إمكانية أنه أُعدّ لاستخدامه في أسر جندي، أو خلال عملية عسكرية مستقبلية مع الجيش الإسرائيلي. وقد أعلن قائد المنطقة الجنوبية في الجيش الإسرائيلي، «شلومو تورجمان»، أن التكلفة المالية في إعداد النفق لا يستطيعها سوى تنظيم واحد، هو حماس.

وفي حين اكتفى رئيس الحكومة في غزة، إسماعيل هنية، بالقول في خطابه الرسمي، يوم السبت ١٩ - ١٠، الذي حضره كاتب السطور؛ إن آلاف المقاومين يتجهزون «فوق الأرض وتحتها» لملاقاة الجيش الإسرائيلي، في إشارة للنفق؛ أكد أبو عبيدة، الناطق باسم كتائب القسام، مسؤولية حماس عن النفق المكتشف، قائلاً إنه حفر بأيدي مسلحيها، وإن عيونهم لم ولن تنام عن ضرب إسرائيل، وخطف جنودها، متوعّداً الإسرائيليين بمزيد من الرعب والقلق من خلال المفاجآت المعدّة لهم من القسام.

(*) كاتب فلسطيني.

معلومات أمنية

وأشـــار مصدر عســـكري في غزة إلى أن حماس وإن لم تعترف رســـمياً بمســـؤوليتها عن النفق، لكنهـــا من جهة تتهم إسرائيل بتضخيم موضوع النفق، ومن جهة أخرى تغمز بعينها فرحاً وفخراً به.

وقد بذلت المخابرات الإســـرائيلية، الأيام الماضية، جهوداً لمعرفة من حفروا النفق، ومن ســـاعدهم بتسليمهم البيت الذي حُفر منـــه، من خلال المكالمات على منازل الفلســـطينيين عبر الهواتف الأرضية، أو إثارة النقاشـــات حول النفق عبر شبكات التواصل الاجتماعي، لتحصيل أي معلومة مهما كانت صغيرة.

ناشـــط فلســـطيني ذو خبرة طويلة في حفر الأنفاق على الحدود مع مصر، قال: لو بدأت المواجهة العسكرية القادمة مع إســـرائيل، وبحوزة حماس هذا النفق، فمن الواضح أن نتيجتها ســـتكون مختلفة تمامـــاً، ما يعني أن اكتشـــافه منع محاولات لخطف جنود ومســـتوطنين يعيشـــون قرب حدود غزة، مؤكداً أن «حفـــاري الأنفاق» في غزة يعرفون أماكن وجود المجســـات على الجدار الأمني، ويخدعونهـــا، بما في ذلك الطائرات من دون طيار التي تحوم في أجواء غزة على مدار الســـاعة، وتقوم بالتصوير عن طريق الأشعة السينية لسطح الأرض.

وقد التقى كاتب السطور أحد من يسمّون في غزة «الحفارين» المتخصصـــين بحفر الأنفاق، ووصف كيـــف تمكّن عناصر حماس مـــن النزول لباطن الأرض فترة طويلـــة لإعداد هذا النفق؛ فقال: يتـــم الحفر بجهاز ميكانيكي لا كهربائي، حتى لا يصدر الضجيج، ويرتكز على سلسلة تشـــبه الموجودة في الدراجات الهوائية، تقوم بتحريك قطـــع حديدية تحفر الرمل، وأثناء تشـــغيل الماكينة ينام «الحفار» على ظهره، ويقوم بتحريك الدعّاسات.

ولئن تمثل الهدف المعلن من إقامة هذا النفق بتنفيذ عملية خطف لجندي إســـرائيلي أو أكثر، لكن ما تسرب من نقاشات عسكرية تشهدها الأجنحة المسلحة في غزة، يربط هذا النفق بما أعلنه الأســـير المحرر في صفقة التبادل، يحيى الســـنوار، عضـــو المكتب السياســـي لحماس والمؤســـس الأول لجناحها المســـلح؛ من أن الحركة أصبحت قوة عظيمـــة، وباتت الآفاق أمامها مفتوحة، مطالباً إســـرائيل بأن تدرك أن قواعد المعادلة العسكرية تغيّرت دراماتيكياً لصالح الفلسطينيين، وعلى حماس وضع الخطط الملائمة والمنسجمة مع هذا التغيّر، لتكريس مبدأ «اليوم نغزو الإسرائيليين ولا يغزوننا»!

وفـــي محاولة لتفســـير هـــذا التحول في فكـــر حماس العســـكري، وارتباطه بالنفق، قال أحد العســـكريين في غزة إن إحـــدى وظائف النفق تنفيذ عمليـــة خلف خطوط الجيش الإسرائيلي إن فكر بتنفيذ عملية ضد غزة، من داخل الأراضي الإسرائيلية، وهو ما لم يحدث منذ عشرات السنين!

حرب تحت الأرض

كاتب هذه الســـطور قام خلال إعداد هذا التحليل بجولة على الحدود الشـــرقية والجنوبية لقطاع غزة، وشـــاهد نشر الجيش الإسرائيلي قوات معززة من جنوده، وعمل على تكثيفها على طول خـــط الهدنة الواقع أقصى شـــرق محافظتي خان يونس ورفح، بعد اكتشاف النفق.

فيما ذكرت أوســـاط فلســـطينية أن الجيش الإســـرائيلي أجرى عملية مســـح شاملة باستخدام أجهزة إلكترونية خاصة، بمساعدة ٣ عربات تابعة لوحدة الهندسة تظهر لأول مرة على الشـــريط الحدودي، تحمل فوقها أجهزة بـــث خاصة وأطباقاً لاقطة، تســـير ببطء شـــديد، وتتوقف عند بعض المناطق التي تشـــك في وجود أنفاق تحتها، وتقوم بعمليات حفر وتمشـــيط دقيق، لا سيما الواقعة في منطقة وعرة، أو بها أشجار كثيفة.

وخلال إعداد التحليل، اطلعت على وثيقة عســـكرية توزّع على الأجنحة العســـكرية الفلســـطينية، جاء فيها: «تعد حرب الأنفاق أحد أهم وأخطر الأســـاليب العســـكرية في مواجهة الجيش الإسرائيلي؛ لأنها تمتاز بالبعد النوعي والاستراتيجي، وما تحققه من آثار بشرية ومعنوية، وما تشكله من تهديد بالغ وتحدٍّ منقطع النظير للآلة العســـكرية الإســـرائيلية المدجَّجة بكافـــة آليات الحـــرب، والنظريات الأمنية التـــي يضرب بها المثل في اختزان وســـائل وإجراءات الحماية والوقاية واستباق ضربات الخصم».

وأضافت الوثيقة: تكمن خطورة أسلوب الأنفاق بابتعاده عن ظروف وإجراءات المواجهة التقليديـــة، واعتماده على مفاجأة العدو بضربة عنيفة قاتلـــة لا تدع له فرصة للنجاة والإفلات، أو تتيـــح له إمكانية المواجهة والتصـــدي والرد بالمثل.. ويعتمد على العمل الهادئ الذي يتـــم بموجبه حفر نفق تحت الأرض، بوسائل ومعدات بسيطة، والمثابرة على العمل دون ضجيج، وفق إحداثيات جغرافية معدة سلفاً، دون ظهور على سطح الأرض.

وتوقعت أن النفق المكتشـــف يشكّل شاهداً جديداً على أن الحرب تحت الأرض ســـتكون من أهم التحديات المهمة للقوات الإسرائيلية، وستتحوّل الأنفاق إلى مشكلة مركزية أمام الجيش، مستشـــهدة بالفشل الذي مُنيت به القوات الأمريكية في فيتنام لمواجهة تحدي الأنفاق الذي استخدمه محاربو «الفايتكونغ»!

فقه التعامل مع الفتن

■ د. أنور أبو زيد(*)

تمهيد بين يدي البحث

إن من تأمل قواعد الفقه الإسلامي يجد سريانها في حياة الناس العامة؛ لما يحويه منصوص بعض هذه القواعد من الأحكام العامة التي من شأنها الحفاظ على وحدة كيان الأمة والتصدي للمخاطر المهدِّدة لاجتماعهم من التنازع والتناحر والفتن والقلاقل.

وسيتمحور هذا البحث حول القواعد التي تنص على المصلحة والمفسدة، إذ هذا النوع من القواعد ذو صلة وثيقة بموضوع الفتن؛ كون الفتنة مفسدة، ويتطلب الأمر دفعها أو اتقاءها بقدر ما يحقق المصلحة للفرد والأمة.

(*) أستاذ الفقه في جامعة البيضاء – الجمهورية اليمنية.

وأغلب هذا النوع من القواعد يندرج ضمن فقه الأولويات[1]، وهذا الضرب من الفقه تشتد الحاجة إليه عند تداخل الأمور وإقبال الفتن وتحديق الأخطار والشرور بالأمة.

وما فقه الفتن إلا الدراية بالأعمال التي تدفع البلايا والرزايا، والبصيرة بالأحكام المنجية منها عند إقبالها أو حال وقوعها.

كما أن اختلال الترتيب والموازنة بين الأعمال من شأنه أن يزيد من البلاء على الإنسان.

والذين يخطئون في سلّم الأولويات كثيرون، وهم بخطئهم هذا يفوتون مصالح كثيرة على الأمة.

ومما ينبغي أن يُعرف أن الأولويات تختلف باختلاف الزمان والمكان والأشخاص، فما يكون مقدماً في وقت قد لا يناسب تقديمه في وقت آخر، وما يكون أولى في حق فرد قد لا يكون مطلوباً في حق غيره.

وإنما يعرف هذا أهل الخبرة والدراية من أهل العلم والبصيرة والفقه في الدين.

قال ابن القيم: الأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه[2].

فمعنى هذا أنه لا يوجد عمل هو الأفضل على الإطلاق، وإنما لكل وقت عبادة تكون هي الأفضل بالنسبة له.

وقد وصف ابن تيمية فقه مراتب الأعمال بأنه حقيقة الدين، وحقيقة العمل بما جاءت به الرسل، وبأنه خاصة العلماء بهذا الدين.. يقول: فتفطّن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد، بحيث تعرف ما ينبغي من مراتب المعروف ومراتب المنكر، حتى تقدم أهمها عند المزاحمة، فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر وجنس الدليل وغير الدليل يتيسّر كثيراً؛ فأما مراتب المنكر ومراتب الدليل بحيث تقدم عند التزاحم أعرف المعروفين فتدعو إليه، وتنكر أنكر المنكرين، وترجح أقوى الدليلين، فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين[3].

وقد اعتبر ابن القيم انشغال الإنسان بالأعمال المفضولة عن الفاضلة من عقبات الشيطان التي لا يتجاوزها المسلم إلا بفقه في الأعمال ومراتبها، حيث يُحَسّن الشيطان له الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، ويريه ما فيها من الفضل والربح؛ ليشغله بها عما هو أفضل وأعظم كسباً وربحاً، فقال في توجيه ذلك: لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له... إلى أن قال: فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها؛ فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً، ورئيساً ومرؤوساً، وذروة وما دونها... ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه[4].

إن عدم فقه الأولويات يؤدي إلى الإغراق في الجزئيات على حساب المحافظة على الكليات؛ فعند النظر في حال العمل الإسلامي نجد أن الأماني واسعة في حين أن الأهداف غامضة، ونجد أن المبادئ بارزة في حين أن البرامج غائبة، والسبب هو عدم وجود دراسات جادة تتولى معالجة مثل هذه القضايا الكلية، وإذا وُجدت فهي دراسات محدودة ومتدنية في مستواها، بينما تقاس اهتمامات الأمم بقضيةٍ ما بإنتاجها الثقافي ونضجها الفكري، فأين تسخير طاقات شباب الأمة وهم كثير ممن يمكن توجيهه وتدريبه للقيام ببحوث ودراسات حول قضايا الأمة الكبرى والمصيرية[5]؟

---

(١) المراد بفقه الأولويات المعرفة بمراتب الأعمال ووضع كل شيء في مرتبته بتقديم ما حقه التقديم وتأخير ما حقه التأخير ابتداءً أو عند التزاحم، وذلك من خلال الاستنباط من الأدلة ومعقولها ومقاصدها.
وممن كتب في هذا الموضوع أو تكلم فيه:
- القرضاوي في كتابه فقه الأولويات، دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، طبع المكتب الإسلامي.
- الوكيلي في كتابه فقه الأولويات، دراسة في الضوابط، طبع المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- محمد همام عبد الرحيم في كتابه تأصيل فقه الأولويات، دراسة مقاصدية تحليلية، طبع دار العلوم.

(٢) مدارج السالكين - محمد بن أبي بكر بن القيم - تحقيق محمد حامد الفقي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١/ ٨٩.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم - أحمد بن تيمية - تحقيق د. ناصر العقل - ط ٦ - سنة ١٩٩٨م - دار العاصمة - السعودية - ص ٢٨.

(٤) مدارج السالكين - ابن القيم - ١/ ٢٢٥.

(٥) انظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي لعبد الكريم بكار - دار القلم - ط ١ - ١٤٢٠هـ - دمشق - ص ٤٢.

ومن هنا لا نعجب عندما تنسى الأمة أبجديات وتتوه عن بدهيات لأجل أنها صرفت النظر بعيداً حول بعض المفردات والجزئيات، ما فوت أصولاً لا يتم النجاح وتجاوز الأزمات إلا بتحققها.

إننا ونحن نواجه التحديات المعاصرة لا بد لنا من اصطحاب هذا النوع من الفقه، وإلا كان ما نفسد أكثر مما نصلح.

وأضرب لك على ذلك مثالاً دعوياً: إن أول واجب على الداعية هو إصلاح النفوس بالإيمان وتطويعها لشرع الله، وهذا ما جعل النبي ﷺ يمكث تلك المدة الطويلة بمكة لتحقيق هذا الأمر، فمخالفة هذا المنهج لدى بعض من يمكنه الله على العباد بتشريعه قوانين العقوبات الرادعة قبل إصلاح البواطن لا تنشئ مجتمعاً صالحاً[1].

فانظر كيف عجزت أمريكا في وقت من الأوقات عن منع الخمر مع كونها وضعت العقوبات وشرعت الأنظمة في سبيل ذلك وخسرت الأموال الطائلة، ولم يكن منها بعد ذلك إلا أنها ألغت تلك القوانين وأعلنت فشلها في الحد من هذه المشكلة.

وقارن ذلك بما حدث مع الصحابة حين جاءهم الخبر باجتناب الخمر فأقلعوا عنه بمجرد سماعهم النهي.

وهذا المثال ليس قاصراً على المتمكن من الكفار، بل حتى المتمكن من المسلمين قد يقع في ذلك، وحينها يفاجأ بعدم التوفيق وربما أساء الظن بربه وهو لا يشعر أنه قد تخلف عن سنة إلهية وقانون رباني في قياد البشرية، ولك أن تعتبر ذلك من الممارسات الخاطئة التي لدى بعض التيارات الدعوية والجهادية على حد سواء في الساحة، وعلامات الاستفهام في عدم التمكين أحياناً، وعدم استمراره أحياناً أخرى.

فالتدرج لدى النفوس التي ألفت الاعوجاج دهراً طويلاً هو خاصة الحكمة، تقول عائشة رضي الله عنها: "إنما نزل أول ما نزل من القرآن سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً.."[2].

وسأجعل الحديث عن هذا الموضوع في ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: أدلة مراعاة الأولويات في الشريعة الإسلامية.

الاتجاه الثاني: قواعد في فقه الفتن.

الاتجاه الثالث: واجب المسلم وموقفه عند الفتن.

الاتجاه الأول:

أدلة مراعاة الأولويات في الشريعة الإسلامية

أولاً: من القرآن الكريم

ونجد ذلك في الآيات التي تشهد لقاعدة المصالح والمفاسد، نحو:

١ قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ففي الآية دليل على أن دفع المفسدة العليا مقدم على دفع المفسدة الدنيا، وضرر فتنة الكفر أشد من ضرر قتل النفس.

(١) انظر: أثر المنهج الأصولي في ترشيد العمل الإسلامي لسفر بن علي القحطاني – ط ١ – ٢٠٠٨م – الشبكة العربية للأبحاث والنشر – ص ٨١.

(٢) صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن – باب تأليف القرآن – حديث رقم (٤٩٩٣).

٢ وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

بيَّن الله تعالى درجات الفريقين عنده، وأن أهل الإيمان والهجرة والجهاد أعظم درجة، ومن هنا نص أهل العلم على أن المقام في الثغور بنية المرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بالمساجد الثلاثة؛ لأن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج[١].

ومن هنا أيضاً أفتى من أفتى من أهل العلم في مسألة المكان الأفضل لإقامة الشخص فيه؟ فأجاب: بأن الإقامة في كل موضع تكون الأسباب فيه أطوع لله ورسوله وأفعل للحسنات والخير بحيث يكون أنشط له، أفضل من الإقامة في مكان يكون حاله فيه دون ذلك[٢].

٣ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

في هذه الآية ترتيب للمحرمات بحسب الأسهل ثم الأشد، فكانت على أربع مراتب: الفواحش ثم الظلم ثم الشرك ثم القول على الله بغير علم[٣].

٤ – وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: ١٩].

٥ – وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ...﴾ [البقرة: ٢٧١].

قال ابن كثير: فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية[٤].

والآيات التي يمكن أن يستنبط منها هذا المعنى كثيرة في القرآن.

ثانياً: من السنة النبوية

١ حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم..." الحديث[٥].

في الحديث بيان أولويات الدعوة إلى الله.

٢ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[٦].

ففي هذا الحديث جعل النبي ﷺ للإيمان مراتب بعضها فوق بعض.

٣ وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "قالوا يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٧].

دل الحديث على الأولويات في باب الأخلاق والمعاملة.

٤ وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام، يعني أيام العشر، قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء"[٨].

دل الحديث على أولوية الإكثار من العمل الصالح في هذه الأيام على غيرها من الأزمنة.

٥ وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم! قلت: ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك"[٩].

في الحديث بيان مراتب الكبائر وأن بعضها أقبح من بعض.

٦ وحديث (ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...) الحديث[١٠].

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٧/ ٤٠.
(٢) المصدر السابق ٢٧/ ٣٩.
(٣) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين – محمد بن أبي بكر بن القيم – تعليق طه عبد الرؤوف سعد – دار الجيل – بيروت – ١/ ٣٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم – إسماعيل بن كثير – طبعة الشعب – القاهرة – ١/ ٤٧٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم (٤٣٤٧).
(٦) متفق عليه واللفظ لمسلم حديث رقم (٥١).
(٧) أخرجه البخاري حديث رقم (١١).
(٨) أخرجه أبو داود في سننه حديث رقم (٢٤٣٣).
(٩) أخرجه البخاري حديث رقم (٤٤٧٧).
(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٥٦٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الاتجاه الثاني:

قواعد في فقه الفتن

قبل أن أسـرد هـذه القواعد وأفصّـل فيها، لا بد من معرفة معنى مصطلح (الفتن).

(**الفـتن**): بكسـر الفاء وفتح التاء، جمع فتنة، ومعناها الابتلاء والامتحان، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب، أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد.

ومـن معانيها: الإمالـة، ومنه قوله تعالـى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]، أي: يميلونـك. ومنه: فتنت الرجل عن رأيه أي أزلته عما كان عليه.

ومن معانيهـا: الإثم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

ومن معانيها: القتل والحروب والاختلاف الذي يكون بين فرق المسـلمين إذا تحزبوا، ومنه قوله في الحديث (إني أرى الفتن خلال بيوتكم)[١].

وللفتنـة معان كثيرة يجمعها فـي كلام العرب: الابتلاء والامتحان[٢].

وقد ذكـر ابن حجر نقولات عن أهـل العلم واللغة في معاني الفتنـة[٣]، ومن أجمعها قول من قـال: أصل الفتنة الاختبار، ثم اسـتعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إليه، كالكفر والإثم والتحريق والفضيحة والفجور وغير ذلك[٤].

وبالجملـة، فقد جرى العرف في إطلاق لفظ الفتنة أن يراد به إحداث ما من شـأنه أن يؤدي إلى اقتتال المسلمين، وأن يسـفك بعضهم دماء بعض، وهذا هو أكبر أنواع الفتن، وهو ما أشار إليه عمر رضي الله عنه لما سأل الصحابة عمن يحفظ منهم قول الرسـول ﷺ في الفتنـة؟ وأجابه حذيفة رضي الله عنه حول فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، وأنه تكفرها الصلاة والصـوم والصدقة... إلخ، قال: ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج موج البحر[٥].

(١) أخرجه البخاري حديث رقم (٣٩٥٧).
(٢) راجع مادة (فتن) من تهذيب اللغة، ولسان العرب.
(٣) فتح الباري ٢/٨، ١٣/٣.
(٤) فتح الباري ١٣/٣.
(٥) أخرجه البخاري حديث رقم (٥٢٥)، ومسلم حديث رقم (١٤٤).

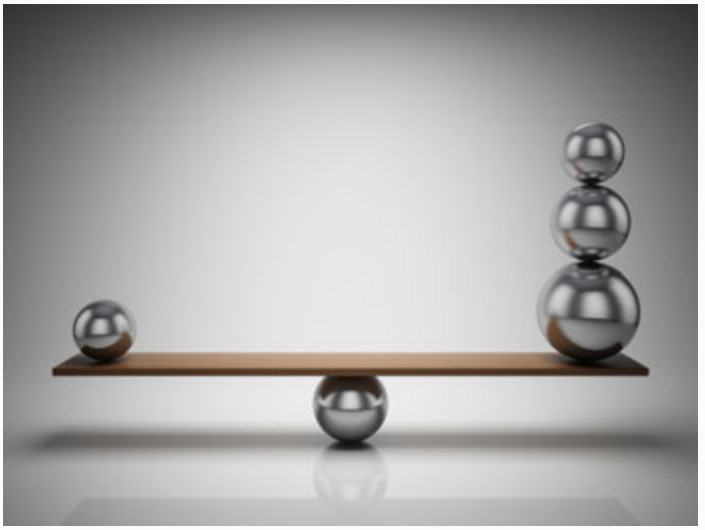

وهذا المعنى هو المراد ببحثنا هنا.

إذن تبيَّن لنا أن الفتنة على نوعين[٦]:

النوع الأول: خاص، وهو ما يتعلق بفتنة الرجل في أهله وماله وولده.

والنوع الثاني: عام، وهـو الفتنة التي تموج موج البحر، وهذا النوع هو المراد في كلامنا هنا.

وفيما يلي بيان لجملة من القواعد في فقه الفتن:

القاعـدة الأولى: عنـد تعـارض المصالـح يقـدم أعظم المصلحتين

جاءت الشريعة بتحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة – بحسـب الإمكان –، وإن تزاحمت قُدم أهمها وأجلها، وإن فاتت أدناهما[٧].

والمصالـح منها ما هو ضروري، ومنهـا ما هو حاجي، ومنها ما هو تحسيني.

فإذا تزاحمـت المصالح يُنظر في الضروري ويقدم على الحاجي، أو الحاجي فيُقدم على التحسيني.

فإن كان التزاحم في الضروريات نفسـها، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال؛ فيقدم حفظ الدين على النفس، وهكذا على الترتيب المذكور.

فالجهاد وإن كان فيه إتلاف النفس لكنه مقدم عليها لما فيه من حفظ الدين.

(٦) انظر: موقف المسلم من الفتن – محمد بن عمر بازمول – ط ١ – دار الاستقامة – ص ٧.
(٧) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم – تعليق حسن الأثري – ط ١ – دار ابن عفان – ٢/٣٦٢.

فـــإذا تزاحمت مصالح متعلقة بواحدة من هذه الكليات الخمس، ينظر في نوعية المصلحة من العموم والخصوص، والتعدي وعدمـــه؛ فتقدم المصلحة العامـــة على الخاصة، والمصلحة المتعدية على القاصرة.

ولو فقه العاملون في حقل الدعوة هذه القاعدة لانحسر كثير من الاختـــلاف الواقع بينهم، فإنه كثيراً ما يحدث بين فصائل العمل الإسلامي خلاف في تحديد أولويات المرحلة التي يمرون بها.

فمنهم مـــن يرى تقديم المواجهة وإعـــلاء راية الجهاد، ومنهم من يفضل الخوض في العمل السياســـي والمجالس البرلمانية، ومنهم من يفضل التربية وإصلاح المجتمع، ومنهم مـــن يميل إلى العمـــل الإغاثي والخيـــري، ومنهم من يؤيد الانصراف إلى العلم الشرعي وتحقيق التراث.

وكثيراً ما ينتج عن هذا الاختلاف بغي وتعدٍّ على الآخر، مع العلم أن تحديد هذه المصلحـــة أو تلك واعتبارها أولى مـــن غيرها هو أمر اجتهادي يخضع لأحوال الزمان والمكان وتضبطها قواعد المصلحـــة، فما يكون أولوياً في بلد قد لا يكون كذلك في بلد آخر، وما يكون أولوياً في زمن الفتنة قد لا يكون كذلك في وقت السعة[١].

وكثير من الاختلاف في هذه المســـائل هو من اختلاف التنـــوع الذي يصوب فيه المختلفون، لكن الذم واقع على من بغى على الآخر[٢].

القاعـدة الثانيـة: إذا تعارضـت المصلحـة والمفسدة قُدم دفع المفسدة غالباً

وتُعرف هذه القاعدة بصيغة أخرى، وهي: "درء المفاسد مقدم علـــى جلب المصالـــح"، وعلاقتها بالفـــتن أن الفتن مفاسد وأضرار يتحتم دفعها، ذلك أنه مع وجودها لا يمكن الاســـتفادة من المصالح؛ إذ لا استقرار للمصلحة مع وجود فتنة تعارضها.

وينبغـــي أن يُعلم أن تقـــديم درء المفســـدة على جلب المصلحـــة إنما هو في حال كانت المفســـدة أعظم، أو كانت مساوية للمصلحة على قول[٣].

كما أن ضابط المصلحة المجتلبة أو المفسدة المدفوعة هو ما كان موافقاً لمقصود الشارع، فما دل الشرع على نفعه فهو المصلحة، وما دل على قبحه وفســـاده فهو المفسدة، فالعبرة بقصـــد الخالق لا بقصد المخلوق؛ ولهذا ميز أهل العلم بين مقاصد الشارع ومقاصد المكلفين، وبيَّنوا أن المحافظة على مقاصد الشارع هي المصلحة ولو خالفت مقاصد المخلوقين.

والحكم على الشيء بأنه مصلحة إنما هو بإذن الشارع فيه، فإذا نهى عنه الشـــارع فهو مفســـدة لاشـــتماله على الضرر.

فالفتنة وما يوصل إليها من الوسائل مطلوب الترك، ولو كان في اتقائها تفويت مصلحة مساوية أو أقل منها.

ويمكننـــا أن نقف علـــى تطبيقات لهـــذه القاعدة في موضوع الفتن من خلال بعض النصوص فيما يلي:

١ الحديث الذي فيه أن النبي ﷺ أوذي بالسحر، ثم عافاه الله منـــه، فقيل له: أفلا أحرقته؟ فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً[٤].

قال الشـــوكاني: هـــذا من باب تـــرك مصلحة لخوف مفسدة أعظم منها، وذلك من أهم قواعد الإسلام[٥].

وذلـــك أن درء مفســـدة إشـــاعة الضرر والشـــر على المســـلمين، أعظم من جلب مصلحة إخراج الســـحر أو قتل الساحر التي هي مصلحة خاصة[٦].

٢ ومثـــل ذلـــك امتناعه ﷺ عن قتـــل المنافقين مع أنه مصلحة خشية مفســـدة أعظم وهي تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه[٧].

القاعـدة الثالثـة: دفـع أعلـى المفسـدتين باحتمال أدناهما

"هـــذه قاعدة كبرى عليها مدار الشـــرع والقدر، وإليها

(١) انظر: الثوابت والمتغيرات – صلاح الصاوي – ط ١ – المنتدى الإسلامي – ص ٣٢٢ وما بعدها، وأثر المنهج الأصولي للقحطاني ص ٨٥.

(٢) هذا كلام ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم (انظر مهذب اقتضاء الصراط المستقيم ص٦٠).

(٣) هناك فريق من العلماء قال بإمكانية وجود تساوي مصلحة مع مفسدة كالغزالي وابن السبكي والخادمي، لكن نجد بعض العلماء يستبعد وجود حالة كهذه، وهذا ما يرجحه ابن القيم، فقد بين أنه لا وجود لهذا القسم في الشرع ولم يقم دليل على ثبوته [انظر مفتاح دار السعادة ٢/ ٣٤٩، ٣٥٨].

(٤) أخرجه البخاري حديث رقم (٣٢٦٨).

(٥) نيل الأوطار – محمد بن علي الشوكاني – دار الكتب العلمية – بيروت – ٧/ ١٨٠.

(٦) انظر تأصيل فقه الأولويات لمحمد همام عبد الرحيم – ط ١ – دار العلوم – ص ٣٠٧.

(٧) أخرج هذا الأثر البخاري برقم (٤٩٠٧).

مرجع الخلق والأمر"[1]، فتحتمل المفسدة الأخف إذا تعيّنت طريقاً لدفع المفسدة الأشد؛ ذلك أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتقديم أهمها عند التزاحم، وإن فات أدناها، وتعطيل المفاسد، فإن تزاحمت عطل أعظمها باحتمال أدناها[2].

ويقال: ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، وإنما الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين[3].

قال ابن القيم: هذه أصول من رزق فهمها والعمل بها فهو من العالمين بالله وبأمره[4].

ويشهد لهذه القاعدة:

١ قصة صلح الحديبية، ففي ظاهرها إدخال الضيم على المسلمين، وهذه مفسدة جعلت عمر رضي الله عنه يستشكل ذلك، لكنها احتملت لدفع مفسدة أعظم منها وهي قتل المؤمنين والمؤمنات الذين كانوا بمكة ولا يعرفهم أكثر الصحابة.

قال الطاهر بن عاشور: إنما لم يأمر المسلمين بقتال عدوهم لما صدوا عن البيت لأنه أراد رحمة جمع من المؤمنين والمؤمنات كانوا في خلال أهل الشرك لا يعلمونهم، وعصم المسلمين من الوقوع في مصائب جراء إتلاف إخوانهم[5].

٢ قصة غناء الجاريتين يوم العيد في بيت عائشة[6]، واحتمال النبي ﷺ لهذه المفسدة ترخيصاً منه لضعفاء العقول من النساء والصبيان، لئلا يدعوهم الشيطان إلى ما يفسد عليهم دينهم، إذ لا يمكن صرفهم عن كل ما تتقاضاه الطباع من الباطل[7].

٣ احتمال النبي ﷺ المرأة التي نذرت إن نجاه الله أن تضرب على رأسه بالدف[8]، فرخص لها لما في إعطائها ذلك الحظ من فرحها بمقدمه الذي هو زيادة في إيمانها ومحبتها لله ورسوله الذي ضرب الدف فيه كقطرة سقطت في بحر.

(١) انظر الجواب الكافي لابن القيم – تحقيق حسين عبد الحميد – ط ٣ – دار اليقين – ص٢١٢.
(٢) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٣٦٢،٣٦٣.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية – ط ١ – طبع وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية – ٢٠/ ٥٤.
(٤) الكلام على مسألة السماع – ابن القيم – تحقيق راشد الحمد – ط ١ – دار العاصمة – ص ٣١٢.
(٥) انظر تفسيره لسورة الفتح عند قوله تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام).
(٦) أخرجه البخاري رقم (٩٨٧)، ومسلم رقم (٨٩٢).
(٧) الكلام على مسألة السماع لابن القيم ص ٣١١.
(٨) أخرجه الترمذي حديث رقم (٣٦٩٠)، وأبو داود حديث رقم (٣٣١٢).

ومن التطبيقات على هذه القاعدة:

١ إذا تترس الكفار بأسرى من المسلمين فلا يجوز رميهم إلا أن يخشى على جيش المسلمين، فيجوز احتمال مفسدة رميهم لدفع مفسدة أعظم وهي هلاك الجيش المسلم[9].

٢ كان ابن تيمية يكف أصحابه عن الاحتساب على التتريين أعداء المسلمين لشربهم الخمر؛ لأن حال صحوهم أشد ضرراً على المسلمين من حال سكرهم.

ويقول في ذلك: زوال عقل الكافر خير له وللمسلمين، أما له فلأنه لا يصده عن ذكر وعن الصلاة، بل يصده عن الكفر والفسوق... وليس هذا إباحة للخمر والسكر، ولكن دفع لشر الشرين بأدناهما[10].

٣ احتمال السلطان الناقص الأهلية لفوات بعض شروط الإمامة في حقه؛ لما في تركهم بلا إمام مفسدة عظمى من ضياع الأنفس والأموال وثوران الفتن.

قال الشاطبي: لأنا بين أمرين، إما أن يترك الناس فوضى وهو عين الفساد والهرج، وإما أن يقدموه فيزول الفساد بتة[11].

٤ الهجر وإن كان في بعض الأحيان أنفع لبعض الناس من التأليف، إلا أنه أحياناً قد تكون المصلحة في تركه إعمالاً لهذه القاعدة، فمع كون تركه يقتضي مفسدة هي ترك الاحتساب عليهم، لكن لما كان في ذلك دفع مفسدة أعظم وهي تماديه في الشر والضرر وتعاونه مع عدو آخر ونحو ذلك؛ كان التأليف في حقه أولى من الهجر[12].

وهنا ينبغي التنبه إلى أن ما يفعله المسلم من ارتكاب المفسدة الصغرى لدفع ما هو أعظم منها لا يسمى شراً، بل هو مطلوب منه[13].

قال ابن القيم: وهل الاستعانة على الحق بالشيء اليسير من الباطل إلا خاصة الحكمة والعقل، بل يصير ذلك من الحق إذا كان معيناً عليه؛ ولهذا كان لهو الرجل

(٩) انظر مفتاح دار السعادة ٢/ ٣٥٥، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ٥٢.
(١٠) الاستقامة لابن تيمية – تحقيق د. محمد سالم رشاد – ط ١ – سنة ٢٠٠٠م – دار الهدي النبوي – مصر – ٢/ ١٦٤ وما بعدها.
(١١) الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي – ضبط وتصحيح أحمد عبد الشافي – ط ٣ – دار الكتب العلمية – ص ٣٦٢.
(١٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٢٠٦.
(١٣) انظر فقه الفتن للإدريسي ص ٦٤٩ وما بعدها باختصار وتصرف.

بفرسه وقوسه وزوجته من الحق؛ لإعانته على الشجاعة والجهاد والعفة. والنفوس لا تنقاد إلى الحق إلا ببرطيل، فإذا تبرطلت بشيء من الباطل لتبذل به حقاً وجوده أنفع لها وخير من فوات ذلك الباطل؛ كان ذلك من تمام تربيتها وتكميلها، فليتأمل اللبيب هذا الموضع حق التأمل فإنه نافع جداً[1].

ومما يحسن في هذا المقام أيضاً لإيضاح مجال القاعدة أكثر، أن نذكر في شأنها مثالين؛ قديم ومعاصر:

أما المثال القديم: فما جرى في تاريخنا الإسلامي من أمر الفتنة، ومن ذلك:

ما حدث في الفتنة بين أهل الشام وابن الزبير بمكة لما احترق البيت المعظم بسبب غزو أهل الشام لمكة، ثم استغلال ابن الزبير رضي الله عنه لهذا الحدث بتجريء الناس على أهل الشام واستشارته لهم في إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم كما كان النبي ﷺ يريد أن يصنع بها، ونهي ابن عباس رضي الله عنهما له عن ذلك وأن يكتفي بترميمها وإصلاح ما وهى منها فقط درءاً للفتنة، لكن ابن الزبير مضى على ما أراد وأعاد بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، فلما توفي أمر عبد الملك بن مروان أن تنقض وتعاد على هيئتها.

فيقال في هذا الموقف: إن أهل الشام لم يقصدوا إهانة البيت العتيق، وإنما كانوا يقصدون ابن الزبير وأصحابه، ولو أنهم أعملوا هذه القاعدة لتلافوا شراً كثيراً، بل إن عبد الملك بن مروان أراد الرجوع عن قتاله لولا أن الحجاج قال له: إني رأيت في منامي أني أخذت ابن الزبير فسلخته، فابعثني إليه، وولني قتاله. فبعثه. فلينظر العاقل كيف لو مضى الأمر على ما همَّ به عبد الملك، لحقنت الدماء وكفي المسلمون شراً عظيماً.

ومما يدل على عدم إرادة أهل الشام الإفساد، ما كان من عبد الملك، فإنه ندم على أمره بنقض البيت كونه ما علم بالحديث النبوي في ذلك، فلما تأكد قال: وددت أني تركته وما تحمّل. يعني ابن الزبير[2].

(١) الكلام على مسألة السماع ص ٣١٤.

(٢) انظر في ذلك: تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار سويدان – بيروت – ٦/ ١٧٤ وما بعدها، وكتاب الحج من صحيح مسلم حديث رقم (٢٣٧١) (٢٣٧٢).

وأما المثال المعاصر، فنذكر صورتين:

الصورة الأولى:

قام أحد العلماء الدعاة بزيارة مدرسة للمسلمين في سنغافورة عام ١٤٠٦هـ، وذكر كيف توفرت لهم أرض في موقع متميز وسط الحي التجاري فبنوا عليها المدرسة، فأخبروه بأن ذلك من أوقاف المسلمين وأن حاكم تلك البلاد، وهو كافر، خيّرهم بين أن يبيعوها أو يبنوها، فلا يصح أن تبقى مهملة، فاختاروا بناءها، ثم ساعدهم هذا الحاكم بالدعم المالي وسهل جميع الإجراءات الرسمية حتى أتموا البناء، يقول: ففوجئت بسائل بعد محاضرتي لهم يسأل: كيف السبيل لإقامة حكومة إسلامية في سنغافورة؟ وسبب هذا السؤال أنه جاء إلى هذه البلاد مبعوثان: واحد من أفغانستان حدثهم بأحاديث الجهاد وحرضهم عليها، وآخر من إيران حدثهم عن الثورة الخمينية والحكومة الإسلامية! فوجه العالم إليهم نصيحة بأن يتركوا الانشغال بهذه المسائل، وبيَّن لهم أنهم في وسط حكومة عادلة وإن كانت كافرة، وأن واجبهم الدعوة للسنغافوريين بالحسنى، وأما الجهاد والحكومة الإسلامية فلو فكروا فيها ربما قضي عليهم بسبب ذلك[3].

الصورة الثانية:

في أيام رئيس جنوب إفريقيا (نلسون مانديلا)، قام هذا الرئيس بجمع زعماء المسلمين في بلده وطلب منهم تشكيل حزب يمثل المسلمين في البرلمان، ليطالب بسنّ القوانين الخاصة بالمسلمين، فاختلف المسلمون في اقتراح هذا الرئيس النصراني العاقل العادل، فكان رأي الفريق المتعقل هو تنفيذ الاقتراح ما دام يمكّن للمسلمين ممارسة الشعائر الدينية وتطبيق ما أمكن من أحكام الشريعة، فلا ضير حينئذ من قبول حكمه، وهم في ذلك كله حكمهم حكم الصحابة تحت حكم النجاشي النصراني العادل[4]، ولا أجدني بحاجة إلى التعليق على ذلك، أو إيجاد العلاقة بين ذلك وقاعدة الباب.

(٣) صاحب هذه القصة هو الشيخ عبد العزيز القارئ رواها في كتابه: الجهاد حياة – ط ١ – دار الصفوة – القاهرة، ص ١٣.

(٤) المصدر السابق.

القاعـدة الرابعة: ينـزل الضرر في المـآل منزلة الضرر في الحال

هذه القاعدة جزء من نظرية اعتبار المآلات في الشريعة، بل هي أحد أعمدتها وأركانها.

والمقصود منها أن المفسـدة التي يراد دفعها قد لا تكون بالضرورة حالة حاضرة، وإنما يتوقع حصولها في المستقبل، وعليه فما أفضى إلى الضرر في ثاني الحال (المسـتقبل أو المآل) يجب المنع منه في ابتدائه.

قال الشاطبي: النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شـرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد النظر إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل[1].

ومن التطبيقات على القاعدة تحريم الوسائل المباحة في الأصل إذا كانت تفضي إلى محرم.

قال القرافي: والمعهود في الشـريعة دفع الضرر بترك الواجب إذا تعين طريقاً لدفع الضرر[2].

ومما يتصل بهذه القاعدة ما أثر عن ابن عباس أنه أفتى رجلاً سأله عن قاتل المؤمن متعمداً هل له توبة؟ فقال: لا، إلا النار! فقيل له في ذلك، فقال: إني لأحسبه رجلاً مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً.

فلما تحققوا من أمره وجدوه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[3].

ومما له علاقة بموضوع الفتن في ضوء هذه القاعدة: نهي العلماء عن معصية الخـروج على ولاة الجور والظلم عند عدم وجود المبيح لذلك، وحتى لو وجد المبيح مع عدم القدرة فلا يجوز الخـروج؛ فإن من تأمل وقائع التاريخ فـي وقوع الفتن المتتالية مـن جراء الخروج والحروب فإنها ما جلبت على المسـلمين إلا الويلات والبلاء والشر، ومن هنا فتطبيقاً للقاعدة يلزم المنع منه في ابتدائه لما يفضي إليه من الضرر في ثاني الحال.

ويشبه ذلك ما فعله علي رضي الله عنه من تأخيره إقامة الحد على قتلة عثمان لما توقعه من حدوث ما هو أكثر شراً في المآل[4].

(١) الموافقات – الإمام الشاطبي – شرح عبدالله دراز – دار الكتب العلمية – بيروت – ٤/١٤٠.

(٢) الفروق – أحمد بن إدريس القرافي – عالم الكتب – ٢/١٢٣.

(٣) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) – لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – سنة ١٩٨٥م – ٤/٩٧.

(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير – مكتبة الرياض الحديثة – ٧/٢٢٧، ٢٢٨، وراجع في الأمثلة المذكورة كتاب فقه الفتن للإدريسي ص ٦٥٤.

القاعدة الخامسة: فوات الشيء إلى ما هو أنفع منه لا يعد فواتاً[5]

هـذه القاعدة نافعة في بـاب التعارض الذي يكون في الحسـنات فيما بينها، أو السيئات فيما بينها؛ فعند تعارض حسـنتين لا يمكن الجمـع بينهما تقدم أحسـنهما بتفويت المرجوح، وعند تعارض سـيئتين لا يمكن الخلو منهما تدفع الأسـوء باحتمال الأدنى، وهذا قد تقدم الكلام عنه، وعند تعارض حسـنة وسـيئة لا يمكن التفريق بينهما بحيث فعل أحدهما مسـتلزم لفعل أو ترك الآخر، فيرجح الأرجح من منفعة الحسـنة ومضرة السـيئة. ومثال تعارض الحسنتين كالواجب والمستحب، وكفرض العين وفرض الكفاية؛ فقضاء الدين مثـلاً إذا كان مطالباً به قدم علـى صدقة التطوع، ونفقـة الأهل تقدم على نفقة الجهاد الذي لم يتعين. ومثال تعارض حسنة وسيئة كتقديم المرأة المهاجرة بلا محرم على بقائها بدار الحرب، وتقديم قطع السارق ورجم الزاني وجلد الشارب على مضرة السرقة والزنا والشرب.

وهـذا الباب – أعني باب التعارض – باب واسـع جداً ويـزداد تعارضه فـي الأمكنة والأزمنة التـي نقصت فيها آثار النبوة، وازديادها – بسـبب نقص الفهـم والعلم وآثار النبوة – من أسـباب الفتنة بين الأمـة.. فينبغي تدبر هذا الموضع، فقد يترك العاقل واجباً دفعاً لوقوع معصية عظيمة الفسـاد، فمثلاً: قد تترك واجب رفع المذنب إلى السلطان الـذي ربما تعدى عليه في العقوبة بما هو أعظم ضرراً من ذنبه، وقد تترك الاحتسـاب على بعض المنكرات لما يفضي إليه الاحتسـاب من ترك لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكر، فيسكت عن الاحتساب خوفاً أن يستلزم ترك ما أمر الله به ورسـوله مما هو عنده أعظـم من مجرد ترك ذلك المنكر. وهذا ما يجعل العالم الرباني تارة يأمر، وتارة ينهى، وتارة يبيح، وتارة يسـكت عن ذلك كله في القضية الواحدة أو القضايا المتشابهة.

ومما ينبغـي أن يُعلم أن الأمر الذي فات مراعاة لما هو أنفـع منه لا يوصف بأنه واجب متـروك، بل قد صار غير واجـب، ولم يكن تاركه لأجل فعـل الأوكد تاركاً لواجب في الحقيقـة. كما أن فعل الأدنى من المحـرم لدفع الأعظم لا

(٥) انظر هذه القاعدة في كتاب فقه الفتن للإدريسي نقلاً عن المغني ٨/٣١٩.

يسمى فاعله مرتكباً لمحرم في الحقيقة. وكونه يسمى فعل محرماً أو ترك واجباً إنما هو باعتبار الإطلاق، وهذا لا يضر، فهو إنما فعل أو ترك لعذر وللمصلحة الراجحة[1].

القاعدة السادسة: الدفع أسهل من الرفع

يطلق الفقهاء هذه القاعدة ويريدون بها أن ما أمكن دفعه ومنع تأثيره في الفعل ابتداءً أولى من التمادي فيه حتى يقوم المانع ثم يبذل الجهد في رفعه، ذلك أن الدفع يكون قبل وقوع المانع فكان أقوى وأسهل، فإذا وقع المانع ضعف رفعه[2].

فالاحتراز للفعل من بدايته بمنع ما قد يؤثر فيه سلباً أولى من التساهل والتمادي المؤدي إلى التلبس بالمانع المؤثر ثم محاولة قطع أو رفع هذا المانع.

فالدفع منع وجود، والرفع إزالة موجود.

ألا ترى أن وجود الماء قبل الصلاة للمتيمم يمنع الدخول فيها، بينما لو لم يره إلا في أثنائها لم يبطلها.

وعلاقة القاعدة بموضوع الفتن أنه ينبغي الانتباه للأسباب المنشئة للفتن والمثيرة لها، فإن السعي في إخمادها في مهدها ومنع مباديها أيسر من الاجتهاد في رفعها وإزالتها إذا تمادت واشتعلت نارها.

ومن هنا شرع الصلح عند الخصومة، وسماه الله خيراً[3]، وهو مادة قوية لحسم النزاع في أوله؛ لأن إغفاله يؤدي إلى فساد ذات البين، وهي التي سماها النبي ﷺ: الحالقة[4].

(١) تحرير الكلام في هذه القاعدة مستفاد من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاويه ٢٠/ ٥١ وما بعدها.
(٢) انظر القواعد لأبي عبد الله المقري – تحقيق أحمد بن حميد – طبع جامعة أم القرى – ٢/ ٥٩٠، والأشباه والنظائر – للسيوطي – الطبعة الأخيرة – مطبعة الحلبي – مصر – ص ١٣٨.
(٣) قال تعالى ﴿والصلح خير﴾ النساء ١٢٨.
(٤) الحديث أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٤ ، أبو دواد حديث رقم (٤٢٧٣)، والترمذي حديث رقم (٢٤٣٣)، والمراد بقوله: الحالقة: أي التي تحلق الدين.

الاتجاه الثالث:

واجب المسلم وموقفه عند الفتن

تكمن خطورة الفتن في تعدد أشكالها وصورها، فصار لزاماً على العاقل الساعي في نجاة نفسه أن يسعى جاهداً للحذر منها واتقاء شرها، وأن يسلك سبل الفرار منها، كما قال تعالى ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فأسباب النجاة من الفتن ترجع إلى سببين رئيسين، هما:

١ **التسلح بالعلم.**
٢ **التسلح بالصبر.**

فالأمر الأول فيه سد لباب الشبهات، وهذه الفتنة، أعني فتنة الشبهات، هي التي تناقض الدين، وأسوأها: الشرك بالله، والإعراض عنه وعن رسوله.

والأمر الثاني فيه سد لباب الشهوات، وهذان البابان هما أساس كل فتنة.

وأما موقف المسلم من الفتن وما يجب عليه تجاهها، فيتلخص في التالي:

١ **الاعتصام بالكتاب والسنة.**
٢ **لزوم الجماعة ونبذ الفرقة والاختلاف.**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: نتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا، وبياض الوجوه. ونتيجة الفرقة عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه وبراءة الرسول منهم[5].

ولو تتبعنا الأحكام التشريعية في الإسلام لوجدناها خادمة لهذا الأصل، فكثير من العبادات ينطوي فيها معنى الاجتماع والتآلف، وكثير من البيوع والمعاملات المحرمة إنما حرمت لحسم مادة الفرقة والاختلاف والشحناء والبغضاء بين المسلمين[6].

والمراد بالجماعة ما وافق الحق وطاعة الله[7]، ويراد بها أيضاً المعنى الخاص الذي هو جماعة المسلمين التي لها إمام موافق للشرع تلزم بيعته[8].

(٥) مجموع الفتاوى ١/ ١٧.
(٦) انظر وقفات تربوية – عبد العزيز الجليل – ط ١ – دار طيبة – ٣/ ٥٥٦.
(٧) انظر إعلام الموقعين ٣/ ٣٩٧.
(٨) انظر وقفات تربوية للجليل ٣/ ٥٥٧ نقلاً عن كتاب لزوم الجماعة لجمال بادي.

فليس العبرة في الجماعة جمهور الناس، إنما العبرة بمن كان موافقاً للحق ومشى على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

قال ابن القيم: وقد شذ الناس كلهم زمن أحمد بن حنبل إلا نفراً يسيراً، فكانوا هم الجماعة، وكان القضاة حينئذ والمفتون والخليفة وأتباعه كلهم هم الشاذون[١].

إذن فلزوم الجماعة من أكبر المنجيات من الفتن، وما فرح الشيطان وأولياؤه من الجن والإنس بشيء أشد من فرحهم بالفرقة والتحريش بين المسلمين[٢].

بل إن من قواعد الدين العظيمة أن فعل المفضول لجلب مصلحة الموافقة والتأليف أولى من فعل الفاضل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن المفضول قد يصير فاضلاً لمصلحة راجحة، وإذا كان المحرم قد يصير واجباً للمصلحة الراجحة، ودفع الضرر؛ فلأن يصير المفضول فاضلاً لمصلحة راجحة أولى[٣].

وقال في موضع آخر: ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف هذه القلوب بترك هذه المستحبات؛ لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا[٤].

وإذا كان هذا في المستحبات والعبادات ونحوها، فلأن يكون فيما من شأنه استقرار أمر الناس أولى، فيجوز نصب المفضول إماماً للناس مع وجود الفاضل خوف الفتنة.

فأنت ترى كيف راعت الشريعة الإسلامية بهذه القاعدة أولوية الجماعة والائتلاف على الفرقة والاختلاف ولو بترك المستحب والفاضل.

ولكن هل يعني لزوم الجماعة أن لا يحصل خلاف بينهم؟ هذا متعذر، لكن الخلاف الحاصل مقبول؛ لأن غايته الوصول إلى الحق، ومحله الفروع لا العقائد[٥].

إلا أن هنا أمراً جديراً بالعناية، وهو أهمية التوازن في هذا الباب، لأن بعض الناس وسع مفهوم الجماعة حتى أدخل فيه من ليس منهم من أهل الفرق والبدع والضلال من المعتزلة والرافضة والأشاعرة.

وبعضهم قد قصر فيه وضيق حتى أخرج طوائف من دائرة السنة والجماعة، وهم أئمة في الفقه والحديث، بحجة وقوعهم في أخطاء ربما وسعها الخلاف، غير أنهم لم ينطلقوا فيه من أصول أهل البدع، بل هي اجتهادات منهم رحمهم الله[٦].

فالمطلوب هو التوازن وعدم الغلو في جانب على حساب جانب آخر، وكلا الجانبين من مقاصد الشريعة، وهما أصلان عظيمان: اتباع السنة ولزوم الجماعة، فلا ينبغي التفريط في أحدهما.

٣ الالتفاف حول العلماء الربانيين.

ومصداق ذلك ما حصل في تاريخ الأمة حين أعز الله الإسلام بأبي بكر الصديق يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة.

٤ الحذر من شهوة حب الصدارة.

فيظن أنه قد استغنى عن أهل العلم، وهجيراه هم رجال ونحن رجال، فإنها القاصمة.

٥ التأني وعدم العجلة.

فعند ورود الفتن تحتاج الأمة إلى بصر نافذ، وعقل راجح، ولا يعجل بإصدار الأحكام، أو تنزيل بعض أحاديث الفتن على الواقعة التي نزلت، فيقع في التناقض والحرج بعد ذلك.

٦ الكف عن الشائعات.

فإنها سلاح فتاك، فإذا ضاق الخناق على الفتنة جاءت الشائعات توسعه، وجاء المرجفون لزعزعة أمن الناس يذيعون الأخبار الكاذبة، ويشيعون الخوف في المجتمع.

فعلينا أن نحذر جميعاً من أسباب الفتن والفساد، وأن نحذر من شق عصا المسلمين، وتفريق جماعتهم، ولا نركن إلى الدعوات المضللة، والصيحات الشاذة، والحذر من تطويع مصلحة العامة لمصلحة شخصية تجر الويلات على الأمة.

والله المسؤول، وهو المأمول أن يقينا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) إعلام الموقعين ٣/٣٩٧، والمراد فتنة القول بخلق القرآن.

(٢) وقفات تربوية للجليل ٣/٥٥٦.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٢/٣٤٥.

(٤) القواعد النورانية – ابن تيمية – تحقيق محمد حامد الفقي – دار المعرفة – بيروت – ص٢١، وضرب أمثلة على ذلك بترك النبي ﷺ تغيير بناء الكعبة لما في إبقائه من تأليف القلوب، وإنكار ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في منى ثم صلاته خلفه متماً لأن الخلاف شر. وهذه الأدلة قد أشرنا إليها في بحثنا هذا لمناسبات أخرى.

(٥) وقفات تربوية ٣/٥٥٨.

(٦) المصدر نفسه ٣/٥٥٨.

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

Available on the iPhone App Store

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

معركة الشريعة
وحق استرداد الهوية

د. أمين الدميري
amindemery51@hotmail.com

إن العودة إلى تطبيق الشـــريعة الإســـلامية ليست مجرد حنين عاطفي إلى الماضي القريب من جانب الشعوب المسلمة، وإنما هي استرداد لحق مســـلوب، وإحياء للذات التي مُحيت والهوية التي فُقدت! فقد عاش المســـلمون ونَعِمَ معهم غيرهم في كنفهم بالعدل والحياة الكريمة، في ظل شـــريعة القسط والرحمـــة، ١٣ قرناً مـــن الزمان، كان الحكـــم فيها لله رب العالمين، غير أن أعداء الإسلام - تحركهم الأحقاد والكراهية والرغبة في الانتقام - ســـعوا إلى ضرب الإســـلام في عقر داره للقضاء على عقيدته وشريعته؛ فكانت الحروب الصليبية التي أنهكت المســـلمين على مدى مائتـــي عام، ثم كانت حقبة الاســـتعمار الغاشـــم، والتي كان هدفها الأول محو الإسلام شـــكلاً ومضموناً. وإذا كان أعداء الإســـلام قد خسروا في جولتهـــم الأولى وهي الحروب الصليبية ولم يحققوا أهدافهم ودفعوا ثمناً باهظاً بســـبب جهاد أهل البلاد؛ فإنهم قد كسبوا الجولة الثانية بسبب تغيير أدوات الصراع، والذي مر بمراحل متعددة، وبيان ذلك فيما يلي:

١ - مرحلة التجهيز والدراســـة والتمهيد: وتمثلها الحملة الفرنســـية عـــام ١٧٩٨م، وكانـــت كارثة علـــى مصر، وليس المقام بيان فظائـــع هذه الحملة، وما فعلـــه جنودها وقادتها في المصريـــين، وتعمدوا بالخصوص الجامـــع الأزهر؛ يقول العلامة الجبرتي في كتابه المسمى «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»: (ثـــم دخلوا الجامع الأزهر وهـــم راكبون الخيول وبينهم المشـــاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وكســـروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والكتبة ونهبوا ما وجدوه، ودشـــتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داســـوها وتغوطوا وبالـــوا...) الجزء الثالث - تاريـــخ الجبرتي، ص ٣٦، مطبعة الأنـــوار المحمدية.. وكان الهدف الأســـاس للفرنســـيين في هذه الحملـــة القضاء على الأزهر؛ لأن منـــه يتخرج القضاة الشرعيون والعلماء الدينيون، ولسرقة كتب التراث، ثم دراسة أحـــوال البلاد «جغرافياً» وســـكانياً، ولعل كتاب وصف مصر الذي أُحرق مؤخراً في المجمع العلمي بالقاهرة - ومات رئيسه حزناً عليه - قد أفاد بعد ذلك الاحتلال الإنجليزي؛ فالهدف واحد والسعي مشترك!

٢ - مرحلـــة الإجهـــاز والهدم والإزالـــة: وتمثلها فظيعة الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢م، والذي جاء ليرسم «خريطة» تقسيم العالم العربي، وليؤسس أنظمة موالية، وليتولى بنفسه منظومة التحول إلى عصر جديد لا وجود للإسلام فيه! وجاء الاحتلال وهو يعرف أين يضع أقدامه؛ فقد مهد له وســـاعده أعوانـــه من بني جلدته أمثـــال «ألفريد بلنـــت» مؤلف كتاب (التاريخ الســـري لاحتلال مصر - راجعه ووافق عليه الشيخ محمد عبده، الناشـــر: مكتبة الآداب القاهرة)، والذي تجول في أنحاء العالم العربي ليدرس ويسجل أحواله، يقول «بلنت»: (أبحـــرت من إنجلترا في خريـــف ١٨٨٠ إلى مصر وليس لي قصد غير الذهاب منها إلى جدة للتعلم والدرس اســـتعداداً لما عســـى أن يعرض في المســـتقبل من الفرص...) ص ٧٤، والذي أنشـــأ علاقة صداقة ومودة مع الشـــيخ محمد عبده يعبر عنها فـــي كتابه - ص ٨٠ بقوله: (إنني رأيت الأســـتاذ

الشـــيخ محمد عبده في منزله الصغير بحـــي الأزهر للمرة الأولى في ٢٨ يناير ســـنة ١٨٨١م، وهـــذا يوم يجب على أن أميزه على ســـائر الأيام؛ لأنه فتح لي باب صداقة بقيت الآن ربع قرن مع رجل من أحســـن وأحكم الرجال العظام...). وقد اســـتفاد "بلنت" من عبده ما نصح به مواطنيه الإنجليز؛ وفي ذلك يقول: (وقد شرحت الآراء كما تعلمتها من الشيخ محمد عبده أستاذ المدرســـة الجديدة الحرة، وتوسلت إلى مواطنيّ بكل ما فيهم من خير أن يعطفوا على آمال أحرار المســـلمين ويؤيدوهـــم ضد الرجعيـــين ذوي المكائـــد والتعصب الأعمى الذين يلجؤون في آخر الأمر إلى حل مشـــكلاتهم الإصلاحية بحد الســـيف...) ص ٩٢، كما مهد له وأرشده وسانده القبط من أهل البلاد! ولا يتســـع المجـــال الآن لبيان دور القبط في مساعدة المحتلين! ومع بواكير الاحتلال توالت الكوارث؛ ففي عام ١٨٨٣م تم إصدار لائحة المحاكم الوطنية، والتي مهد لها "نوبار باشا" وزير إسماعيل المسيحي بإنشاء المحاكم المختلطة عـــام ١٨٧٥م بالاشـــتراك مع المحامي الفرنســـي "مانوري"، وبذلك حلت المحاكم الوطنية الأجنبية محل المحاكم الشرعية الإســـلامية، وتدعيماً لهذا المسلك تم إنشاء مدرسة القضاء، ومدرســـة الحقوق، ومدرسة الألسن؛ لتخريج متخصصين في القوانين الوضعية الغربية، واســـتكمالاً للمخطط الاستعماري الغاشـــم تبنّى عملاء الاحتلال منظومة الشعارات التي تصب في صبـــغ الحياة بالصبغة الغربية، مثـــل: الدين لله والوطن للجميع، مصر للمصريين، تحرير المرأة، المســـاواة بين الرجل والمرأة، القومية، والوطنية... وعلى طريقة الهدم ثم البناء كان لا بد من الترويـــج للنظم والمذاهب الغربية، ومنها ما تم نقله إلى العربية بشـــحمه وعظمه: كـ "الديمقراطية"، فلم تترجم إلى لفظة عربيـــة! و"الليبرالية"، فلم تترجـــم إلى الحرية أو التحرر! بخـــلاف "العلمانية" التي أخطؤوا في ترجمتها؛ فهي بلغتهـــم «secularism»، وتعني: اللا دينية، ولا تعني (العلم) «sience»، ولا أظن أن ذلك كان على سبيل الخطأ، لكنه على سبيل العمد بقصد التضليل!

٣ - قيام ما ســـمي ثـــورات التحرير: فبعد أن ســـارت الأمور على ما أراد وخطط لها الاســـتعمار، وتعالت أصوات المطالبين بالجلاء؛ كان الســـؤال لمن ستســـلم مقاليد الأمور لضمـــان ألا تضيع إنجـــازات الاحتلال من إقصاء الشـــريعة واســـتمرار التبعية والمحافظة على النمـــط الغربي وألا تعود العجلة إلى الوراء؛ وذلك بعدم الســـماح لأي اتجاه إســـلامي بالظهور أو حتى الوجود؟! وقد وقع الاختيار على مجموعة من العسكر، وقام بالاختيار والاتفاق وتولي إدارة عملية التسليم، الاســـتعمار الجديد، وهو الأمريكي، الذي ســـاند وأيَّد القادة الجدد؛ يقول "جايل مايـــر" في كتابه «الولايات المتحدة وثورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢» ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمر، الهيئة المصرية للكتاب، ص ٦٤: (لقد أكد مايلز كوبلاند، الدبلوماسي الأمريكي وعضو المخابرات C.I.A، أن من الضروري مساندة وتأييـــد القادة الجدد الذين ســـيتولون الســـلطة في مصر، وعقـــد كوبلاند عدة اجتماعات مع روزفلت، عضو المخابرات، ومندوبين عـــن الضباط الأحرار في وقـــت مبكر في مارس ١٩٥٢، وفي مايو ١٩٥٢ بعث الســـفير الأمريكي جيفرســـون كافري بتقرير مؤكداً أن الجيش قادر الآن على حســـم الموقف وتشكيل حكومة وطنية تســـتطيع القوى الغربية أن تبدأ معها محادثات ناجحة، وأعلن رســـمياً أن الملحق العسكري البحري "دافيـــد إيفانز" كان على صلة وثيقـــة بالضباط الأحرار ليلة الانقلاب...)، وفي أول تصريح لقادة الثورة، وذكره "ماير"، (أن الضباط الأحرار يبغضون الاتجاه الشـــيوعي وكذلك جماعة الإخوان المسلمين)، وحدث الانقلاب، وكان أول ما فعله القادة الجدد هو إلغاء ما تبقى من الشـــريعة الإسلامية، خصوصاً في قوانين الأسرة (الأحوال الشخصية)، والتي ناضل من أجل عودتهـــا علماء أجلاء، ودعاة مخلصون، ومســـلمون غيورون، وبُذلـــت جهود وقُدمت تضحيات، وظهـــرت جماعات وتعالت أصوات تطالب بعودة الشـــريعة الإسلامية، إلا أن النظم التي قامت على قهر شـــعوبها، وطمس هويتهـــا، وتحطيم ذاتيتها، وحالـــت بينها وبين أن تحكم بشـــريعة ربها؛ كانت - دائماً - سداً مانعاً رافضاً كل محاولة وكل نداء للحكم بشريعة الله!.. وفي هذه المرحلة الحرجة التي هبت فيها الشـــعوب المسلمة رافضة الظلم والقوانين الوضعيـــة، مطالبة وراغبة في عودة أحكام الإســـلام؛ ثبت للعالم أجمع في ســـابقة لم تحدث في واحدة من قارات الأرض الخمس، أن الغالبية الســـاحقة من الشـــعوب اختارت الإسلام، وتريد أن تحكم بشريعة الله، فهل سيقدِّر النظام العالمي إرادة تلك الشعوب، وهل سيتعامل مع ما أســـفرت عنه النتائج والأحداث، وهل سيعترف بحق المسلمين في أن يحكموا بشـــريعتهم، وهو الذي يتحـــدث عن الحرية وحقوق الإنسان؟ أم أنها حرية وحقوق للإنسان غير المسلم؟.. أليس من حقنا اســـترداد ذاتنا وهويتنا؟.. وفي الختام، فإني أطالب الدول التي اســـتعمرت بلادنـــا وغيّرت هويتنا وبدّلت شـــريعتنا بالاعتذار عما بدر منها وسلف، وأتمنى ألا تتعامل تلك الدول بعقلية الماضي!

تأمُّلات في آية التوثيق

■ محمد مسعد ياقوت

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى فَاكْتُبُـوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَـدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَـا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُـبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَـيْئاً فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَـفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْـتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَـطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَـاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُـوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِـكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَـفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

[البقرة: ٢٨٢، ٢٨٣].

هذه الآية الطويلة في توثيق التداين.

فليعلم الناسُ أن للديون نصاً في الشرع هو أطول نص في القرآن:

يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا بشـرع الله منهجـاً للحياة وطريقاً للنجاة: إِذَا تعاقدتم فيما بينكم حول قرض من القروض؛ دَيناً إلى وقت معلـوم، فاكتبوا ذلك، ووثقوه بالورقة والقلم؛ ذلك حتى لا تضيع حقوقُ العباد.

وَلْيَكْتُبْ صيغـةَ العقد بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ ثقة، بِالْعَدْلِ من غير نقصان أو زيادة أو تدليس.

وَلا يرفـضُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ للنـاس عقودهم، كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ الكتابة.

وهو من باب شـكر النعمـة؛ أنْ تُعلِّم الناس مما علمك الله، فالقارئ يُعلِّم الأمي، والعالم يفقّه الجاهل، والصانع يعلِّم العاطل، وقد قال رسـول الله ﷺ: «مَنْ

كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ»[1].

فَلْيَكْتُبْ الكاتبُ الوثيقةَ إذا ما دُعي للكتابة - وهذا في حق أي إنسان يجيدُ كتابة الوثيقة -، وَلْيُمْلِلِ المَدين أو المقترضُ - الَّـذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ - ما عليه من مال في ذمته، وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ في الصدق والسداد، وَلا يُنقصُ مِنْهُ شَيْئاً.

فَإِنْ كَانَ الـمَدينُ - الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ - سَـفيهاً لا يُحسن التدبيـر، أَوْ ضَعِيفاً لا يقوى على اتخاذ القرار، كصبي صغير أو شيخٍ هرم مختل، أَوْ لا يَسْتَطِيعُ هو أَنْ يباشر الإملاء ليثبت ما في ذمته من الحق؛ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّ أمره بِالْعَدْلِ والحق.

وَاطلبـوا رجلين من المؤمنين يشـهدون وثيقة العقد، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ؛ فَرَجُلٌ مؤمن وَامْرَأَتَانِ مؤمنتان مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّـهَدَاءِ - فينبغي على الطرفين أن يقتنعا بالشـهيدين - وممـن تعرفون عنهم العدالة والأهليـة، والعلة في كونهما (امرأتين): أَنْ تنسـى إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، ومن ثم جنّبهـا أن يتحدث إليها الرجلُ الشـاهد، ومن ثم تذهب إليها أُختها تحدثها عن شـأن الوثيقة التي كانت في يوم كذا بـين فلان وفلان، أو أن تجهلَ فتُعلِّم إحداهما الأخرى طبيعة الإشهاد، فغالب النساء لا يعرفن شيئاً من هذه الأمور.

وَلا يرفض الشُّـهَدَاءُ الحضورَ إِذَا مَا دُعُوا لإحقاق الحق لأهله.

عَـنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِى يَأْتِى بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْـتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قال أبـو هريرة: وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لا! قَالَ: «ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ[3]، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا»[4].

وَلا تكسـلوا أَنْ تَكْتُبُوا الحق صَغِيـراً أَوْ كان كَبِيراً، قليلاً كان أو كثيراً؛ فاكتبوه، ووثقوه إِلَى وقته، مؤرخاً باليوم والشهر والسنة.

ذَلِكُمْ هذا التوثيـق الدقيق هو أَعدل عِنْدَ الله، فهو يحب تلك الدقةَ ويحب ذلك التوثيقَ، وذلك أيضاً أفضلُ لِلشَّـهَادَةِ، وأسهل للشهداء أن يتذكروا شـهاداتهم، وذلك أيضاً «أقربُ» حتى لا تَشكّوا فيما بعد في أي أمر من أمور الوثيقة.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٦٧٤٣).
(٢) أخرجه مسلم (٤٥٩١).
(٣) يحبون التوسع في المآكل والمشارب، وهو ما يؤدي إلى السمنة، وهم مع ذلك شهداء زور، وهم كثرةٌ في محاكم اليوم، تراهم بصفتهم هذه.
(٤) أخرجه مسلم (٤٦٠٢).

إلا أَنْ تكون صفقةً تجاريةً، حَاضِـرَةً، نقديةً، تتداولونها بَيْنَكُمْ، يداً بيد من غير تأجيل، فلا حرج عليكم بعدم توثيقها.

ولكنْ أحضروا شهوداً إذا ما شرعتم في بيعٍ وشراء.

والإشهاد هنا على سبيل الاستحباب عند الجمهور، فقد ابتاعُ النبيُ ﷺ دون إشهاد:

فعـن عُمَارَة بْن خُزَيْمَةَ الأَنْصَـارِيّ أَنَّ عَمَّهُ حَدَّثَهُ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَسـاً مِنْ أَعْرَابِيٍّ فَاسْـتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِـهِ فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَشْـيَ، وَأَبْطَـأَ الأَعْرَابِيُّ فَطَفِقَ رِجَـالٌ يَعْتَرِضُونَ الأَعْرَابِيَّ فَيُسَـاوِمُونَ بِالْفَرَسِ لاَ يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمُ الأَعْرَابِيَّ فِى السَّـوْمِ عَلَى ثَمَـنِ الْفَرَسِ الَّذِى ابْتَاعَهُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَنَـادَى الأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعاً هَذَا الْفَرَسَ فَابْتَعْهُ وَإِلاَّ بِعْتُهُ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَـمِعَ نِدَاءَ الأَعْرَابِـيِّ فَقَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُـهُ مِنْكَ»، قَالَ الأَعْرَابِيُّ: لاَ وَاللَّـهِ مَا بِعْتُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلَى قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ»، فَطَفِقَ النَّاسُ يَلُوذُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالأَعْرَابِـيِّ وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ، فَطَفِقَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَـهِيداً يَشْهَدُ أَنِّى بَايَعْتُكَ، فَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ قَالَ لِلأَعْرَابِيِّ: وَيْلَكَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيَقُولَ إِلاَّ حَقّاً ! حَتَّى جَاءَ خُزَيْمَةُ[5] فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاجَعَةِ الأَعْرَابِيِّ فَطَفِقَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيداً يَشْهَدُ أَنِّى بَايَعْتُكَ، قَالَ خُزَيْمَةُ: أَنَا أَشْـهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ «بِمَ تَشْـهَدُ ؟»، فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ الله، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ[6].

وَلا تفعلوا فعلاً تَضرُّون به كاتب الوثيقة أو الشـهود، كأن يُكره الكاتب على كتابة باطل، أو يُهدد الشـاهدُ بأن لو شهد ليفعلن به كذا وكذا، كما يفعلُ الظلمةُ مع شهود الحق؛ ليثنوهم عن الإدلاء بالشهادة.

والحاصل: لا يضار الكاتب بأي ضرر، ولا يضار الشاهد بـأي ضرر، بل هيئوا لهما جو الثقة والأمان ليقوما بمهمتهما على أكمل وجه.

وَإِنْ تَفْعَلُوا بهما أي ضرر، فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ، وخروجٌ منكم.

وَاتَّقُوا اللـهَ، وخافوه في أحكام التدايـن، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ الأحكام والمسائل، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فهو مصدر المعرفة.

وأما في حال السفر؛ فيقول:

(٥) هو: خزيمة بن ثابت رضي الله عنه.
(٦) إسناده حسن. أخرجه أحمد (٤٧ / ٤٥٤/ ٢٢٥٢٢)، وأبو داود (٣٦٠٩)، والنسائي (٣٣٦/١٤).

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وإن كنتم مسافرين، وحدث أن أردتم إبرام التداين، فلم تجدوا مَن يكتب لكم، أو لم تتمكنوا من عملية التوثيق لظروف السفر، فليكن الرهان هو البديل، فليقبض الدائنُ رهناً[1] ما من المَدين.

وعن عَائِشَةَ - رضي الله عنها -: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَرَى طَعَاماً مِنْ يَهُودِيٍّ إِلَى أَجَلٍ، وَرَهَنَهُ دِرْعاً مِنْ حَدِيدٍ»[2].

وفي قصة مقتل كعب بن الأشرف اليهودي: «أن محمد بن مسلمة رضي الله عنه قال لكعب هذا: أَرَدْنَا أَنْ تُسْلِفَنَا وَسْقاً أَوْ وَسْقَيْنِ. فَقَالَ عدو الله: ارْهَنُونِي نِسَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ! قَالَ: فَارْهَنُونِي أَبْنَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُ أَبْنَاءَنَا فَيُسَبُّ أَحَدُهُمْ، فَيُقَالُ: رُهِنَ بِوَسْقٍ أَوْ وَسْقَيْنِ هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْهَنُكَ اللأْمَةَ - يَعْنِي السِّلاحَ -، فَوَعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ»[3].

ولكن ماذا لو تعذر الرهان، أو لم يطلب الدائنُ رهناً، وذلك لأن الرهن مشروعٌ بطريق الندب لا بطريق الوجوب:

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، الدائن والمدين، فلم يكتبوا، ولم يتراهنوا، ولكنْ تحققت الطمأنينة بين الطرفين؛ فَلْيُؤَدِّ المَدينُ الذي أخذ المال فصار أمانةً في عنقه، فليدفع الأمانة إلى صاحبها، وليتق الله ربه، وليخفْ اللهَ سيده، فسيحاسبه إن حبس المال عن صاحبه.

وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ، ولا تُخفوا الحقيقة، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ شاهدُ زور، غليظٌ قَلْبُهُ، قد ضرب الله عليه القسوة، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، فما من عقد يُعقد إلا يعلمه ويحصي أمره، وسيقف الخصومُ والشهودُ والكُتابُ - على شتى مستوياتهم - أمام الله عز وجل ويحاسبهم.

(١) الرهن في الشرع: حبس الشيء بحق ليستوفى منه عند تعذر وفائه، وما وُضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك.
والرّهان والمُراهنة: في أصل اللغة: المخاطرة، وقد راهنهم وهم يتراهنون، وأَرْهَنوا بينهم خَطَراً بذلوا منه ما يرضى به القوم بالغاً ما بلغ فيكون لهم سَبَقاً، والمُراهنة والرهان: المُسابقة على الخيل ونحوها، وأحياناً يكون الرهان في لغة العرب بمعنى: المقامرة، كأن يقول: قامرت الرَّجُل مُقامرة وقِماراً: راهنته وهو التّقامر. انظر: «المخصص» لابن سيده (١٨/٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٦٨)، ومسلم (٤٢٠٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٥١٠).

فوائد:

- يستحب كتابة العقد والإشهاد عليه، ولصاحب المال مطلق الحرية في ذلك، والقول بوجوب التوثيق مرجوحٌ، فإن صاحبَ المال يستطيعُ في الأصل أن يهب المال كله، ونحن لا نلزمه أن يعقدَ عقداً على مالٍ يملكه، وهو إذا يشاء يمنع أو يمنح، ولعلنا لو شدّدنا عليه وقلنا بوجوب التوثيق لمنع أن يُقرض أحداً بالأساس، كما أن الحياء قد يمنعه أن يُشهد على شيخ ذي رحم، أو عالِم ذي فضل، ولكنّ أحكام آية التداين جاءت في صالح صاحب المال بالجملة لحفظ ماله إن أراد الاستيثاق، وليطمئن قلبُه، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

- ينبغي دوماً بذل الاحترام والتوقير لكل متطوع، وإنّ لمن الفسق إضراره: ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وصايا عملية:

- استشعرْ فضلَ الله عليك وأنت تكتب وتخط بيمينك: ﴿وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

- أجبْ فوراً إذا ما دُعيت إلى الشهادة، وأدِّها بالعدل والإنصاف: ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

جوال

بالبيان

للإشتراك

ارسل رسالة فارغة

STC ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

zain ٧٠٤٠٤٧

رسائلنا تحكي أهدافنا

معالم في النبوات عند ابن تيمية

طالما احتفى أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله - بمقام النبوة، وفضلها، وضرورتها، ودوّن معالم جليلة وقواعد فريدة بشأن النبوات.

وإقراراً واتباعاً لسبيل النبيين والمرسلين، وتحدّثاً بهذه النعمة العظيمة: بعثة محمد ﷺ، ومجانبةً لسبيل من ذمّهم الله ممن أنكر بعثته وجحد رسالته، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣][1]؛ لذا نورد طرفاً من هذه المعالم[2] على النحو التالي:

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net
@dralabdullatif

(*) أستاذ مشارك سابق في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

(١) واختار ابن جرير – في تفسير هذه الآية – أن المراد بالنعمة ها هنا: بعثة نبينا محمد ﷺ.

(٢) طالعت غير واحد من الكتب المؤلفة في النبوات – قبل ابن تيمية – فلم أعثر على مثل هذه المعالم والفتوحات، ولا قريباً منها.

– من إشـــراقات أبـــي العباس في بيـــان أن النبوات والرســـالات آكد الضروريات قوله: «الرســـالة ضرورية للعباد، لا بد لهـــم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شـــيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالـــم إذا عدم الـــروح والحياة والنـــور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شـــمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشـــرق في قلبه شمس الرســـالة، وينابه من حياته وروحها؛ فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَـــن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَـــاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان»[١].

ويقرر أن الرسالة المحمدية أعظم نعمة على الإطلاق، فيقول: «من استقرأ أحوال العالم، تبيَّن له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرساله ﷺ، وأن الذين ردوا رســـالته هم ممن قال اللـــه فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيـــنَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُـــمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]»[٢].

ويجزم – في موطن ثالث – بأنه لولا الرسل لما عُبِد الله وحده، ولا كانت شريعة في الأرض، فقال: «ينبغي للعاقل أن يعلم أن قيام دين الله في الأرض إنما هو بواسطة المرسلين صلوات الله وســـلامه عليهم أجمعين، فلولا الرسل لما عُبد الله وحده، ولا كانت له شريعة في الأرض.

وليس في الأرض مملكة قائمـــة إلا بنبوة، أو أثر نبوة، وإن كل خير في الأرض فمن آثار النبوات»[٣].

ولأجل ما ســـبق «صار ظهـــور الأنبياء ممـــا تؤرَّخ به الحوادث في العالـــم؛ لظهور أمرهم عند الخاصة والعامة، فإن التاريخ يكون بالحادث المشهور الذي يشترك الناس فيه ليعرفوا به كم مضى بعده وقبله»[٤].

– ولمـــا كانت النبوات آكد الضرورات وأعظم الحاجات، فإن دلائل ثبوتها لا تكاد تُحصى؛ فما كان الناس إليه أحوج فإن أدلته أيسر وأظهر وأكثر.

وقـــرر أبو العباس هذا المعلم فـــي مواطن متعددة، كما فـــي قوله: «قد ذكرنا في غير هـــذا الموضع أن النبوة تعلم بطرق كثيرة، وذكرنا طرقاً متعددة في معرفة النبي الصادق والمتنبئ الكذاب، غير طريق المعجزات.

إن الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة الشـــيء، يسّر الله أســـبابه، كما ييسّـــر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد.

فلمـــا كانت حاجتهم إلى النَفَس والهواء أعظم منها إلى الماء، كان مبذولاً لكل أحد في كل وقت.

ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت، كان وجود الماء أكثر من ذلك.

فلمـــا كانت حاجتهم إلى معرفـــة الخالق أعظم، كانت آياته ودلائـــل ربوبيته، وقدرته وعلمه ومشـــيئته، وحكمته؛ أعظم من غيرها.

ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرســـل بعد ذلك، أعظم مـــن حاجتهم إلى غير ذلك؛ أقام الله ســـبحانه من دلائل صدقهم، وشـــواهد نبوتهم، وحسن حال من اتبعهم، وســـعادته، ونجاته، وبيـــان ما يحصل له مـــن العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم»[٥].

وقال أيضاً: «إن المطلـــوب كلما كان الناس إلى معرفته أحوج يسّر الله على عقول الناس معرفة أدلته، فأدلة إثبات الصانع وتوحيده، وأعلام النبوة وأدلتها؛ كثيرة جداً، وطرق الناس في معرفتها كثيرة»[٦].

وبهـــذا يظهر فســـاد مذهب المتكلمـــين الذين حجّروا واسعاً، وضيّقوا ما وسّعه الله من دلائل، فظنوا أن النبوة لا تثبت إلا بالمعجزة، وقد بسط أبو العباس بطلان مقولتهم في «شرح العقيدة الأصفهانية».

ومن أجود اســـتدلالاته وأقواها: اســـتدلاله بالصفات الإلهيـــة على إثبات النبوة، فقد احتج بصفة الحكمة الإلهية علـــى ثبوت النبوة، فقال: «الكلام في النبوة فرعٌ على إثبات الحكمة التي يوجب فعل مـــا تقتضيه الحكمة، ويمتنع فعل ما تنفيه، وهو ســـبحانه حكيم، يضع كل شيء في موضعه

(١) الفتاوى ١٩/ ٩٣، ٩٤.
(٢) الجواب الصحيح ٣/ ٢٤٣، ط المدني.
(٣) الصارم المسلول ص ٢٤٩، ٢٥٠، ت: محيي الدين عبد الحميد.
(٤) الرد على المنطقيين ص ٣٩٢.
(٥) الجواب الصحيح ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤، وينظر: ٤/ ٣٠١، وشرح الأصفهانية ت: السعوي ص ١٣٣، والدرء ١٠/ ١٢٩.
(٦) الرد على المنطقيين ص ٢٥٤– ٢٥٥.

المناسب له، فلا يجوز أن يسوّي بين جنس الصادق والكاذب»[1].

وقال - رحمه الله -: «قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فهو أعلم بمن يجعله رسولاً ممن لم يجعله رسولاً.

وهو عالم بتعيين الرسول، وأنه أحق من غيره بالرسالة، كما دلّ القرآن على ذلك، وقد قالت خديجة - رضي الله عنها - لما فجأ الوحي النبيَّ ﷺ وخاف من ذلك: (كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصِل الرحم، وتصدُق الحديث، وتحمل الكلّ، وتُكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)[2].

وكانت أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - أعقل وأعلم من الجهمية[3]، حيث رأت أن من جعله الله على هذه الأخلاق الشريفة، المتضمنة لعدله وإحسانه؛ لا يخزيه الله، فإن حكمة الربّ تأبى ذلك»[4].

- تحدّث أبو العباس عن بركات النبوات ومنافعها ومصالحها، وما تستلزمه من الأقيسة الصحيحة، والعقول السديدة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، فقال - رحمه الله -: «والله سبحانه أرسل رسله بالعلم النافع، والعمل الصالح، فمن اتبع الرسل، حصل له سعادة الدنيا والآخرة.

ولما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، تلقى ذلك عنه المسلمون من أمته.

فكل علم نافع وعمل صالح، عليه أمة محمد ﷺ، أخذوه عن نبيهم، مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية.

ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم فهو من الأصل المعلِّم»[5].

وقال عن أهل الإسلام أتباع نبينا محمد ﷺ: «فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدّ وأسدّ عقلاً، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم و الأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال»[6].

ثم إن الشخص كلما كان أعظم اتباعاً للرسول، كان أتم عقلاً وأكمل فهماً.

يقول أبو العباس: «من تدبر الحقائق وجد كل من كان أقرب إلى التصديق بما جاءت به الرسل والعمل به، كان أكمل عقلاً وسمعاً، وكل من كان أبعد عن التصديق بما جاءت به الرسل والعمل به، كان أنقص عقلاً وسمعاً».

إلى أن قال: «والمؤمن بالرسل يقول: إن الله خصّهم من العلم والعقل والمعرفة واليقين بما لم يشركهم فيه أحد من العالمين.

قال وهب بن منبّه: لو وُزن عقل محمد ﷺ بعقل أهل الأرض لرجح»[7].

والأنبياء يحررون البشر من رق الشرك والوثنيات، ويبصّرونهم من العمى، كما قال أبو العباس: «والأنبياء يُصححون سمع الإنسان، وبصره، وعقله، والذين خالفوهم صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون.

فالسحرة يزيدون الناس عمى، وصمماً، وبكماً، والأنبياء يرفعون عماهم وصممهم وبكمهم»[8].

وقال أيضاً: «فالأنبياء كملوا الفطرة، وبصروا الخلق، كما في صفة محمد ﷺ: (أن الله يفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غُلفاً)[9].

ومخالفوهم يُفسدون الحسّ والعقل، كما أفسدوا الأدلة السمعية.

والحسّ والعقل بهما تعرف الأدلة، والطرق ثلاثة: الحسّ والعقل والخبر، فمخالفوا الأنبياء أفسدوا هذا، وهذا، وهذا»[10].

وأخيراً، فإن البشرية اليوم تكابد الشقاء والضنك، وتعاني القلق والنكد، بسبب إعراضهم عما جاء به نبينا محمد ﷺ من العلم والنور، والإيمان والروح، وبحسب الإعراض عما جاء به الرسول يكون الشقاء والنكد، وبحسب الإيمان به والاتباع تكون الحياة الطيبة والسعادة الأبدية، فالحمد لله على الإسلام والسنة.

---

(١) النبوات ٢/ ٩١٧.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) الجهمية ها هنا الذين ينكرونه صفة الحكمة وسائر الصفات الفعلية.
(٤) منهاج السنة النبوية ٥/ ٤٣٧، ٤٣٨، وينظر: المنهاج ٢/ ٤٢٠.
(٥) الجواب الصحيح ٤/ ٨٥، وينظر: ٤/ ١٠٤، ١٠٥.
(٦) الفتاوى ٤/ ١٠.
(٧) الدرء ٧/ ٨٣، ٨٥ = بتصرف يسير، وينظر: الفتاوى ١٦/ ٥٨٤.
(٨) النبوات ٢/ ١٠٥٠.
(٩) أخرجه البخاري.
(١٠) النبوات ٢/ ١٠٩٥.

جديدنا في معرض
القاهرة الدولي
2010/01/27م

للتوزيع الخيري 0504478932

Badr: 0508948947

مجلة

البيان

نصرةً لنبيك ..

اجعله
هدية في سفرك

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦